إسهامات مدرسة المنار فى الاقتصاد الإسلامي

دكتور/ نجاح عبد العليم أبو الفتوح(*)

١/ خلاصة البحث

١. مدرسة المنار مدرسة فكرية مصرية إصلاحية يلتقى روادها عند العمل على استنهاض الأمة الإسلامية من رقدتها لتتبوأ مكانها اللائق بين الأمم. ويلتقى هؤلاء الرواد عند تشخيص أدواء الأمة وأسبابها من جمود فكرى وانعدام للحرية والعدالة وعزل للدين الخالص عن قيادة حياتها بما ترتب على ذلك من فساد وتخلف عن ركب التمدن سيما فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وأخيرا فان رواد هذه المدرسة يلتقون عند اعتماد الدين الإسلامى مصدرا أساسيا لمنهجها الإصلاحي، ولكنه الدين فى أصوله الخالصة من الشوائب، المصاحبة للتفكير الحر الذى لا يتقيد بقيد ما دام فى إطار الشريعة الإسلامية.

٢. وإذا كانت هذه المدرسة تعمل على استنهاض شامل للأمة فإن الاقتصاد لا بد وأن يكون ضالعاً فى منهجها (وهو ما كان بالفعل)، ولما كان هذا المنهج يرتكز على الإسلام، عقيدة وشريعة وخلقا، فإن الجوانب الاقتصادية فى منهجها لا بد بالضرورة أن تكون إسلامية.

٣. هذه المدرسة إذن جعلت الاقتصاد فى إطار الدين الإسلامي، وهذا – فى رأينا– إسهامها الأم –والأكبر– فى إحياء الاقتصاد الإسلامي. وعزز من إسهام وتأثير هذه المدرسة على الاقتصاد الإسلامى أنه:

(*) كلية البنات الإسلامية – جامعة الأزهر.

٤. تربى فى هذه المدرسة أجيال من الرواد وتلاميذهم. تبوءوا المراكز القيادية فى مصر، وقادوا نهضتها فى مطلع القرن العشرين ولا يزال تلاميذ لهم يقودون.
٥. مارس رواد هذه المدرسة جوانب من التطبيق الاقتصادى الإسلامي، منها على سبيل المثال إنشاء الجمعية الخيرية التى كانت نموذجاً للعمل الإسلامى العام فى مجال التعليم وبث القيم الإسلامية، وفى مجال التكافل الاجتماعى بل وفى المجال الثقافى فى العام.
٦. قاد رائد من رواد هذه المدرسة النهضة الاقتصادية المصرية فى مطلع القرن العشرين، وحقق لها مبادئ إسلامية فى الاقتصاد من حيث تحقيق الاستقلال الاقتصادى وإتاحة فرص الاستثمار أمام الأموال تعزيزا لحركة تداولها وتضييقا على ثغرات الاكتناز، وإتاحة فرص العمل والتدريب وتكوين الكفاءات الوطنية.
٧. لا يزال تأثير هذه المدرسة وإسهامها فى الاقتصاد الإسلامى قائما حتى الآن متبلوراً فى هيئة دعاة للاقتصاد الإسلامى على مستوى الفكر والواقع، وفى شكل مؤسسات اقتصادية واجتماعية إسلامية عديدة.

مقدمة البحث

موضوع هذا البحث هو "إسهامات مدرسة المنار فى الاقتصاد الإسلامي".

ويثير بحث هذا الموضوع مجموعة من التساؤلات: ما هى مدرسة المنار؟، ومن هم روادها؟، وما هى الخطوط العريضة لأفكار ورسالة هذه

المدرسة. وما هو الاقتصاد الإسلامي؟ وما هى حلقات الوصل بين أفكار هذه المدرسة وبين الاقتصاد الإسلامي؟

ومن المعلوم أن مدرسة المنار مدرسة فكرية إصلاحية مصرية نشأت فى أواخر القرن التاسع عشر، ويعتبر الإمام محمد عبده خير الله (١٢٦٦-١٣٢٣هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م) رائدها الأول الذي تتلمذ على يد باعث نهضة الشرق السيد جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤-١٣١٤هـ ١٨٣٨-١٨٩٧م)، كما يعتبر الأستاذ محمد رشيد رضا تلميذ الإمام حامل رايتها الفكرية فى حياة الإمام وبعد وفاته. وإلى جانب الأستاذ الإمام كان هناك لفيف من الرواد فى مجالات الحياة المختلفة التقوا معه على فكره أو تتلمذوا عليه، وأخذوا عنه منهجه الإصلاحي الذى كان علاجا لواقع مرفوض.

ومن المعلوم أن الاقتصاد الإسلامي مفهوم يتسع ليشمل المذهب والنظام الاقتصادي الإسلامي مثلما يشمل علم الاقتصاد الإسلامي، والتاريخ الاقتصادي وتاريخ الفكر الاقتصادي الإسلامي. وأيا ما كانت تعاريف الاقتصاد الإسلامي فإنها جميعا تلتقى عند كونه اقتصاداً يرتكز على العقيدة والشريعة و الأخلاق الإسلامية.

وفى ضوء ما تقدم فإننا سنحاول الوقوف على الخطوط العريضة لمنهج مدرسة المنار عن طريق دراسة فكر رائدها الأول الأستاذ الإمام وتلميذه الأستاذ محمد رشيد رضا، وذلك من واقع نصوص منسوبة إليهما، ثم بعد ذلك نتعرف على جانب من إعمال هذا الفكر فى الواقع من خلال دراسة مجملة للجمعية الشرعية الإسلامية التى أسسها الأستاذ الإمام ومجموعة من الرواد عام ١٨٨٢م، وكذا من خلال عرض جانب من محاولته الإصلاحية للأزهر

وللقضاء والأوقاف حتى يمكن لنا فى نهاية المطاف الوقوف على إسهامات مدرسة المنار فى الاقتصاد الإسلامي، وإتماما للوقوف على هذه الإسهامات فإننا سنتعرض لجانب من فكر ونشاط أحد تلاميذ الإمام ورائد النهضة الاقتصادية المصرية فى مطلع القرن العشرين محمد طلعت حرب باشا. وبذلك نصل إلى موقف يمكننا معه أن نحدد نتائج بحثنا. وعليه فإن منهج هذا البحث سيكون بمشيئة الله تعالى، منهجا استقرائياً للنصوص والأحداث، استنباطاً للنتائج منها. وتتحدد خطة البحث كما يلي:

مبحث أول: مدرسة المنار – البيئة والجذور.

مبحث ثان: الإمام محمد عبده– المفكر.

مبحث ثالث: الإمام محمد عبده – الزعيم.

مبحث رابع: الأستاذ/ محمد رشيد رضا، حامل لواء فكر المنار فى حياة الإمام وبعد وفاته.

مبحث خامس: محمد طلعت حرب باشا، تلميذ الإمام وزعيم نهضة مصر الاقتصادية.

مبحث أخير: نتائج البحث.

٢/ المبحث الأول
مدرسة المنار
البيئة والجذور

إن محاولات الإصلاح تفترض وجود ما يستدعى هذا الإصلاح من وجهة نظر المصلح. فما هى أحوال مصر (والأمة) فى عهد الإمام محمد عبده والتى استدعت منهجه فى الإصلاح؟ وإذا كانت أفكار المصلح فيما يتعلق بمنهجه الإصلاحى لا تنشأ من فراغ بل تتأثر بنشأته وبجذور فكرية يستقى منها ويلتقى معها، فإننا فى هذا البحث سنقدم نبذة مختصرة عن أحوال مصر فى عهد الإمام وعن تأثر الإمام بالسيد جمال الدين الحسينى الأفغانى، وأخيرا عن أثر نشأة الإمام على طريقته فى علاج أدواء أمته.

١/٢ أحوال مصر فى عهد الإمام:

شهدت طفولة الإمام عهد الخديوى عباس حلمى الأول (الفترة من ١٨٤٩م وحتى ١٨٦٣م)، وشهد شبابه وتبلور منهجه الإصلاحى عهد إسماعيل (الفترة من ١٨٦٣م وحتى ١٨٧٩م)، وشهد دعوته ونشاطه فى سبيل نشر منهجه عهد الخديوى محمد توفيق والجانب الأكبر من عهد الخديوى عباس حلمي الثاني، واستمرت أثاره إلى يومنا هذا، وتستمر إلى ما شاء الله.

ويمكن القول أن ما أصاب البلاد من فساد فى عهدى سعيد وإسماعيل والذى انتهى باحتلال إنجلترا لمصر كان أمراً لا شك أثر فى تفكير الإمام وفى استدعاء منهجه الإصلاحي.

فقد بدأ الخديوى سعيد طريق الاستدانة من الخارج، وبلغ الخديوى إسماعيل بالإسراف والاقتراض من الداخل والخارج مدى خطيرا انتهى بالتدخل فى شئون مصر واحتلالها فى عهد خلفه الخديوى توفيق باشا.

فأما عن إسرافه فحدث ولا حرج فقد بنى على سبيل المثال نحو ثلاثين قصراً فخماً بلغ ما أنفقه على واحد منها ١.٣٩٣.٧٣٤ جنيها. وكان لا يفرق بين ماليته الخاصة والمالية العامة بل يعب من خزانة الدولة للصرف على أهوائه الشخصية وعلى إرضاء مطامع بطانته"[١]. وطال إسرافه بيت المال والأوقاف فاستولى على ما يقدر بـ ٥٣٧٠٠٠ جنيه إنجليزى من أموالها. "وكان الخديوى مثلاً يحتذى به باشوات القطر وأمراؤه وكبراؤه وأعيانه (والناس على دين ملوكهم). فقلدوه فى البذخ والإسراف، مما اضطر معظمهم إلى الاستدانة من المرابين والبنوك، ورهن الأملاك والعقار، فخربت بيوت عامرة، وضاعت ثروات طائلة"[٢].

وأما عن قروضه، فقد كانت لازمة من لوازم إسرافه لم تستدعها حاجة حقيقية للبلاد، ودعاه إسرافه ونهمه إلى القبول بشروط مجحفة عند الاقتراض وقبوله لمعدلات عالية من الربا الفاحش. فلم تكن الخزانة تحصل على قيمة القروض كاملة بل تخصم منها مبالغ طائلة بمعرفة أصحاب البيوت المالية والسماسرة فى شكل سمسرة ومصاريف وفوائد وغيرها. وقد أحصى بعض الماليين مقدار ما تسلمه الخديوى من القروض مبلغ ٥٤ مليونا من الجنيهات

(١) "عصر إسماعيل"، صـ٢، من صـ٥١ إلى صـ٥٣.

(٢) "عصر إسماعيل"، جـ٢ ، صـ٢٤٨.

تقريبا فى حين أن قيمتها الرسمية ٩٦ مليونا[٣] وقد مكن للإسراف والفساد والاقتراض بالربا الفاحش (ولغير ما حاجة ضرورية) أن الحكم كان مطلقاً.

وانعكس الإسراف وفوضى الاقتراض على الحاجة الشديدة من جانب الدولة للأموال فزادت الضرائب زيادة مطردة وابتدعت أنواعاً عديدة من الضرائب و" لم تكن للضرائب قاعدة معلومة ولا قوانين أو لوائح يعرف منها حدود ما يجبى من الأهلين ومواعيد الجباية بل كانت المسألة متروكة لأهواء الحكومة".[٤] ولم تكن الضرائب كذلك موزعة توزيعاً عادلاً كما كان نظام الجباية سيئا، فتفرض الحكومة الضرائب مقدما وكان عمال الجباية يلجأون إلى الضرب بالكرباج لتحصيلها، وزادت أحوال الفلاحين سوءا، ولجئوا إلى الاقتراض بالربا الفاحش وانتزعت ملكيات وآلت إلى الأجانب. وانتهى الأمر بانتشار المرابين انتشاراً هائلاً فى عهد إسماعيل فى طول البلاد وعرضها، وقد تبلغ الفائدة فى الشهر الواحد ١٠% أو ١٢% فى الشهر أى ١٢٠% إلى ١٤٤% فى السنة"[٥].

إلى جانب ذلك فقد استعان إسماعيل بالأجانب من الأوربيين فى المناصب الخطيرة التى تمس استقلال البلاد كتعيين صمويل بيكر الرحالة الإنجليزى حاكماً لمديرية خط الاستواء، والجنرال أستون باشا رئيسا لأركان حرب الجيش المصري. ومكن إسماعيل للمغامرين الأجانب الذين أتوا برؤوس

(٣) المرجع السابق، جـ٢، صـ٤٩.
(٤) المرجع السابق، جـ٢، صـ ٢٧٩.
(٥) المرجع السابق، جـ٢، من صـ٢٧٩ إلى صـ٢٨٤.

أموالهم واستثمروها فى مشاريع عديدة بداية من البنوك إلى المشارب والملاهى ومحال الدعارة[٦].

الإسراف والحكم المطلق وسوء التدبير والاقتراض بالربا الفاحش وانعدام العدالة وتمكين رؤوس الأموال الأجنبية والأجانب من مقاليد الأمور فى مصر– كل ذلك أدى إلى تردى الأحوال المالية فى مصر والتدخل الأجنبى فى شئونها المالية.... والذى انتهى باحتلال مصر عام ١٨٨٢م.

هكذا فأساس البلاء كان فى الميدان الاقتصادي، وسبب البلاء كان فى الابتعاد عن القيم الإسلامية، قيم الاستقلال والعدالة والاعتدال والاستطاعة وتحريم الربا واحترام الأولويات... إلى آخر القيم ذات التأثير فى المجال الاقتصادي والتى تعتبر إطارا عاما للاقتصاد الإسلامي.

وحاول التدخل الأجنبى طمس هذه القيم وتذويب هوية الأمة، ومن ذلك: استبدال التاريخ الميلادى بالتاريخ الهجري، وتطبيق القوانين الفرنسية على المصريين، ونشر الخمارات وبيوت الربا، وأحل الاحتلال الميسر، ونشر العرى وفتحت للرقص مدارس، ونشر المحتل الخرافات لتغييب وعى الأمة وعمل على تغيير لغة التعليم فى المدارس إلى اللغة الإنجليزية...."[٧].

٢/٢ تأثر الإمام بأفكار السيد جمال الدين الأفغانى:

قضى السيد جمال الدين الأفغانى بمصر الفترة من ١٨٧١م حتى ١٨٧٩م وكان الإمام محمد عبده تلميذا له يلازمه كظله وتبعه فى مواقفه

(٦) المرجع السابق، جـ٢، من صـ٢٨٤ إلى صـ٣٠٦.

(٧) الإمام محمد عبده، صـ٨٨، صـ٨٩.

السياسية خلال هذه الفترة. وشغل منصب المحرر الأول بجريدة "العروة الوثقى" لسان حال جمعية العروة الوثقى التى أسسها السيد الأفغاني، كما شغل الإمام فى تنظيم العروة الوثقى منصب نائب الرئيس الأفغاني. واستقى الإمام من السيد الأفغاني، أو التقى معه، تشخيص أدواء الأمة الإسلامية ووسائل علاجها، واستقى منه غايته فى الكفاح من أجل استنهاض الأمة من رقادها وتحقيق تحررها الفكرى والسياسي، واستقى من السيد، أو التقى معه، أن استنهاض الأمة إنما يكون بالعودة إلى أصول الدين الحنيف من منابعه دون تحريف أو ابتداع.

فيرى السيد الأفغانى أن سبب ضعف الأمة وهوانها إنما يرجع إلى الابتعاد عن دينها الحنيف، يقول: "هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل... وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها. سنة ثابتة لا تتخلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال كسنته تعالى فى الخلق والإيجاد، وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال"(٨) ويرى جمال الدين الأفغانى أن علاج أدواء الأمة إنما يكون بالرجوع إلى قواعد دينها، فيقول عن علاج أدواء الأمة "فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها.... ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة. والقلوب مطمئنة إليه... فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع

(٨) "جمال الدين الأفغاني – باعث نهضة الشرق" للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي، صـ١٢١.

الأرواح لأقرب وقت"[٩]. ويرى الأفغانى أن استنهاض الأمة بالرجوع إلى أصول دينها له طريق وحيد هو طريق الثورة.

يلتقى التلميذ مع أستاذه.. على ضرورة استنهاض الأمة من رقدتها وضرورة تحررها الفكرى والسياسى بالعودة إلى الدين الإسلامي من منابعه الأصلية الخالصة من الشوائب والتحريف. وسبيل ذلك عند السيد الأفغانى إنما هو الثورة على الأوضاع القائمة، وتبذل دون ذلك الأموال والدماء. بينما سبيل الإمام محمد عبده هو الإصلاح والتدرج بالوسائل السلمية مركزا على أهمية التربية والتعليم وإصلاح المؤسسات القائمة فى المجتمع. وتغيير هذا المجتمع عن طريق عودة منظومة القيم الإسلامية إلى واقع الحياة عن طريق التعليم والتربية المرتكزة على الدين، وإصلاح اللغة العربية التى هى وعاء الثقافة الإسلامية ولغة القرآن الكريم.

ونورد فى ختام هذا الحديث نصاً ورد عن الإمام يستبين منه مدى تأثير السيد عليه فى الغاية والوسيلة وان افترقا بين الثورة والإصلاح. قال الإمام "والدى أعطانى حياة يشاركنى فيها على ومحروس (أخواه) والسيد أعطانى حياة أشارك فيها محمد وإبراهيم وموسى وعيسي، والأولياء والقديسين[١٠].

(٩) المرجع السابق، صـ٨٤.

(١٠) "الأعمال الكاملة" ، جـ١، صـ٣٣.

٣/٢ أثر نشأة الإمام فى تبنى منهج الإصلاح دون الثورة:

لسنا بصدد ترجمة لسيرة الإمام محمد عبده بل نورد بعضا من اللمحات عن نشأته وحياته قد يكون لها أثر هام فى اتخاذه الإصلاح منهجا لاستنهاض الأمة ورفضه سبيل الثورة والدماء.

١- فى عام ١٨٤٩م ولد الإمام ونشأ فى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من أعمال مديرية البحيرة فى بيئة ريفية، وفى أسرة عرفت بمقاومة ظلم الحكام حتى انهم زج بهم جميعا فى السجون واحدا بعد واحد ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتا(١١)

٢- فى مطلع حياته رفض الإمام تلقى العلم من خلال أساليب التدريس العقيمة بالجامع الأحمدى بطنطا وعاد إلى قريته، وتزوج وعقد العزم على العمل بالزراعة، ولكن والده أعاده مرة أخرى إلى الجامع الأحمدي.

٣- التقى الإمام فى مطلع تكوينه بخال أبيه الشيخ درويش خضر الذى كان رجلا متصوفا واسع الأفق التقى بالسيد محمد المدنى وأخذ عنه الطريقة الشاذلية، وقدم الشيخ درويش إلى تلميذة الإمام كتابا يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى إلى بعض مريديه، وكانت هذه الرسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل، وتزهيدها فى الباطل من مظاهر الحياة الدنيا"(١٢). وفى سجال للشيخ مع تلميذه سأل التلميذ

(١١) "الأعمال الكاملة" ، جـ١، صـ٢٣.

(١٢) "الإمام محمد عبده"، صـ١٠.

الشيخ" ما هى طريقتكم؟ فقال طريقتنا هى الإسلام. فقلت أو ليس كل الناس بمسلمين؟ قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب. سألته: ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات؟ قال: لا ورد لنا سوى القرآن. تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر. قلت: إنى لم افهم القرآن ولم أتعلم شيئا: قال: أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك بالتفصيل. وإذ خلوت فلم تمض علىّ بضعة أيام إلا وقد رأيتنى أطير فى عالم آخر...ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه نفسى إلا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد"(١٣)

ووجه الشيخ درويش الإمام إلى دراسة العلوم غير الدينية من منطق وحساب ومبادئ الهندسة، واستصحبه فى مجالس العامة، وشجعه على التحاور معهم.

٤- قدم الإمام إلى الأزهر الشريف تلميذا والأزهر حينئذ يعانى من جمود وعزلة عن العلوم الحديثة.

٥- درس الإمام الفقه المالكى والفقه الحنفي، والمذهب الأول هو مذهب أهل الرأى والثانى أكثر المذاهب الإسلامية عملا بالمصلحة.

(١٣) المرجع السابق ، من صـ٩ إلى صـ١١.

٦- تتلمذ الإمام على السيد جمال الدين الأفغانى باعث نهضة الشرق. وشغل فى تنظيم العروة الوثقى السرى منصب نائب الرئيس ومارس العمل التنظيمى السري"(١٤).

٧- فى يولية ١٨٧٩م (١٢٩٦هـ) نفى السيد جمال الدين الأفغانى من مصر- نفاه الخديوى توفيق رغم سابق وده وعهوده معه قبل توليه الحكم، وتنكر للسيد واحد من أخص نصرائه محمود سامى البارودى الذى كان عضوا بالحكومة التى أصدرت قرار النفي.

٨- شاهد الإمام توقف صدور جريدة "العروة الوثقى" ١٨٨٤م، والتى كان يعمل محرراً أول لها، ويئس من العمل السياسى المباشر كوسيلة لنهضة الشرق" (١٥).

٩- فى نفس العام الذى نفى فيه السيد جمال الدين الأفغانى تم عزل الإمام من وظيفة التدريس فى دار العلوم والألسن وحددت إقامته فى قريته "محلة نصر" حتى عام ١٨٨٠م.

١٠- شارك فى ثورة عرابى ١٨٨٢م وشهد هزيمة الثورة. وعقب الهزيمة سجن ثلاثة أشهر ثم حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات بدأت فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢م ولكن النفى امتد إلى ما يقرب من ست سنوات.

وهكذا كانت نشأة الإمام: رجل هو بطبيعته ذو عقل راجح يرفض الجمود ويفضل أن يترك الدراسة ليزرع فى أرضه حرا بلا قيود. وتسوقه الأقدار ليتلقى فى بداية حياته الفكرية عن صوفى مستنير طريقه

(١٤) "الأعمال الكاملة" ، جـ١، صـ٢٩.

(١٥) المرجع السابق.

الإسلام وورده القرآن، ثم تسوقه الأقدار بعد ذلك ليلتقى فى مرحلة نضوجه الفكرى بباعث نهضة الشرق وبالعودة إلى أصول الدين. ورأى أثر التعليم عليه هو نفسه: كيف غير طريق حياته من العودة إلى الزراعة إلى ارتياد آفاق التعليم والإصلاح. ودراسته لمذهبين فقهيين يرتكزان على الرأى وترجيح المصلحة.

ونشأ الإمام فى بيت قضى أبناؤه نحبهم فى السجون جريرة نضالهم ومقاومتهم للظلم. وعاش الإمام بنفسه عثرات طريق الثورة، وهو فى مسيرته مع السيد جمال الدين الأفغاني، تلك العثرات التى طالت السيد بالاضطهاد والنفى والموت شبه مقتول، وتنكر بعض من أخلص تابعيه له، وطالت هذه العثرات الإمام نفسه بالسجن والنفى سنوات وحرمانه من تولى سدة الإصلاح، وطالت ثورة عرابى التى أخفقت فى مواجهة الإنجليز والقصر والخونة وعبادة الحكام لمصالحهم الضيقة.

كذلك فقد رأى وعاش ما آل إليه حال البلاد من فساد واحتلال، ووضع يده على أسباب ذلك من بعد عن إعمال القيم الإسلامية فى الحياة والاستغراق فى الجمود والجهل والبدع والأثرة والشهوات. ورأى كيف بدأ التدخل والضعف من سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة لذلك.

هذا قليل من كثير مهد لبروز مصلح دينى من الرواد يستنهض أمته بالدين الخالص الصافى من الشوائب، ويرفض الثورة والدماء، ويتخذ من الإصلاح الذى يعتمد على التربية والتعليم المستند إلى الدين، والذى يعزز الإيثار الاجتماعي، والإحساس بالأمة، وتحرير العقل الإنساني، طريقا لإعادة القيم وإعادة رسم الحياة فى إطار الدين الصحيح، مدركاً ما للاقتصاد من

أهمية بالغة حيث بدأت بضعفه محاولات التدخل الذى انتهى بالاحتلال، وتنبه إلى أسباب ذلك الضعف الكامنة فى البعد عن تعاليم الشريعة الإسلامية وأخلاقها.

٣/ المبحث الثاني
الإمام محمد عبده: المفكر

فى هذا المبحث سنحاول التعرف على الخطوط العريضة لأفكار الإمام و التى هى فى ذات الوقت الخطوط العريضة لأفكار مدرسة المنار. فنعرض لصورة مجملة لهذه الأفكار ثم لبعض مؤلفات الإمام وفتاويه.

١/٣ رؤية الإمام محمد عبده للتمدن:

إن المتصفح لكتابات وأعمال الإمام محمد عبده يتبين له بوضوح أن للإمام رؤية واضحة لعملية تنميه اقتصادية واجتماعية شاملة أو ما يسميه هو "التمدن" للنهوض بالأمة. وفيما يلى نقدم جانبا من هذه الرؤية كما تبين لنا:

مفهوم التمدن:

عرف الإمام التمدن فجعله شاملا للجوانب الأدبية والمادية، الحسية والمعنوية ضمن عملية تغيير شاملة، فيقول"... نقول- ولا مغالاة فى الحق- إنه هو الضامن لتوطيد أركان العمران، والكفيل بتشييد دعائم الاجتماع، كيف لا... وهو الحقيقة الجامعة لكل فرد من أفراد الكمالات، من غير فرق بين أن يكون أدبيا، أو ماديا، حسيا أو معنويا، فالتفنن فى الصنائع فصل من فصوله، والتسابق فى ميادين العلوم باب من أبوابه، والتجافى عن مواضع النقيصة جزء

منـه، والتجمـل بـالأخلاق الفاضـلة نبـذ مـن جـواهره، فـإذا لا بـدع إذا قلنـا أن صاحبه هو السعيد، والواطئ بنعله غرف النعيم"[١٦]

المنهج الذى يقود عملية التمدن:

يرى الإمام محمد عبده أن استنهاض المسلمين من رقدتهم إنما يكون بالإسلام لأنه دينهم وعقيدتهم ولأنه الجامع لكل شئ بالحكمة وانه أخ العلم. يقول الإمام "إذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما بيناه، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام به، فلم العدول عنه إلى غيره"[١٧] (لاحظ تأثر الإمام بالسيد الأفغانى).

ويقول "إن المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن"[١٨]

ويقول "لا بد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخي العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم"[١٩]

قادة التمدن:

يرى الإمام دوراً هاماً للغاية لقادة التمدن من رجال المعارف والمحنكين فى السياسة والإدارة، بل يعتبر أن الفقر الحقيقى فى البلاد مرجعه إلى قلة وجود هؤلاء القادة الذين لا يغنى عن وجودهم وفرة الموارد وجودتها. يقول الإمام "إن أرضنا خصبة طيبة التربة.... وهواؤها ونباتها فى غاية الجودة...

---

(١٦) " الأعمال الكاملة " ، جـ٢، صـ٣٨.

(١٧) "الإمام محمد عبده" ، صـ١٥٦.

(١٨) " الأعمال الكاملة " ، جـ١، صـ٨٦٥.

(١٩) "الإمام محمد عبده"، صـ١٦٠.

وبنوها أصحاب كد ونصب... ولكن ليس كل الذى ذكرته بكاف وحده فى الغنى والثروة، والعزة والشوكة، وان كان من كليات أسبابها، بل لا بد أن ينضم إليه حسن استعمال هذه الأسباب الجليلة، ورشاد الرأى فى استخدامها، ليوضع كل شئ فى موضعه الطبيعي، وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها، فان ضلت الآراء، وساء الاستعمال فهذا هو الفقر المدقع الذى يعسر علاجه، وماذا تصنع الوسائل المهيئة إذا لم تجد من يستعملها فيما هى وسيلة له... فما فقر البلاد إلا قلة الراشدين فيها وما غناها الحقيقى إلا كثرة المهتدين..."(٢٠).

ثم يستطرد الإمام ذاكرا جانبا من أثر قلة مثل هؤلاء الرجال على الزراعة والصناعة والتجارة وتأخر الفنون الإنتاجية بها وتخلفها، فيقول "الزراعة على حالها القديم، لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة الحاصلات، أو تسهيل العمل، وتخفيف المشقة... والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة... والتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصرا... والمرشحون لاستلام إدارة المصالح العمومية التى هى أساس العمران... هم أيضاً كسابقيهم"(٢١).

ويرجع الإمام قلة قادة التمدن إلى "عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية، التى تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلاده كإحساسه بمنافع نفسه، وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضرار ذاته، إن لم نقل تجعل الإحساس الأول أقوى من الثاني، وتزيد فى إحساس الإنسان بمنافعه ومضاره"(٢٢).

(٢٠) " الأعمال الكاملة " ، جـ٣، صـ٤٥.

(٢١) المرجع السابق، جـ٣، صـ٤٦.

(٢٢) المرجع السابق، جـ٣، صـ٤٧.

أسباب الفقر ودور الأغنياء فى إزالة أسبابه:

يورد الإمام جانبا من أسباب الفقر فيقول "وللفقر أسباب كثيرة منها الضعف والعجز عن الكسب ومنها إخفاق السعي، ومنها البطالة والكسل، ومنها الجهل بالطرق الموصلة، ومنها ما تسوقه الأقدار من نحو حركات الرياح واضطراب البخار واحتباس الأمطار، وكساد التجارة ورخص الأسعار"(٢٣) ثم يورد الإمام أمثلة لما يمكن أن يقوم به الأغنياء لإزالة أسباب الفقر فيقول "والأغنياء متمكنون من إزالة بعض هذه الأسباب أو تدارك ضررها وإضعاف أثرها، كإزالة البطالة بإحداث أعمال ومصالح للفقراء، وإزالة الجهل بالإنفاق على التعليم والتربية- تعليم طرق الكسب و التربية على العمل والاستقامة والصدق- وإذا كان فقر الفقير إنما هو بالجرى على سنة من سنن الله فإزالة سبب فقره أو مساعدته عليه أو فيه إنما تجرى على سنة من سننه تعالى أيضاً كما أن غنى الغنى كذلك، فالإنفاق لإحياء سنة الله ومساعدة من ينتسبون إلى الله تعالى على انهم عياله إذ لا غنى لهم بكسبهم ولا حول لهم ولا قوة ينزل منزلة الإقراض له تعالي، فالفقراء عيال الله يعولهم بأيدى الأغنياء، ويعول الأغنياء بتوفيقهم لأسباب الغنى"(٢٤).

(٢٣) "الأعمال الكاملة"، جـ٤، صـ٦٧٣ و صـ٦٧٤.

(٢٤) المرجع السابق.

أهمية العدل فى عملية "التمدن":

يرى الإمام أن العدل يعتبر حافزا لعملية التمدن فيقول "وإذا رسخت قدم العدالة فى أمة تمهدت لها طرق الراحة، وعرف كل ما له وما عليه، فتلهبت فيهم الأفكار، وتلطف الإحساس، وقويت قلوبهم على جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم فيدركون لأول وهلة أن لا دوام لما وصلوا إليه، ولا ثبات لما تحصلوا عليه، إلا إذا تأيد بينهم شأن المعارف الحقيقية، وعمت التربية سائر أفرادهم، فيقدمون بكليتهم على الأخذ بالأسباب المؤدية لانتشار العلوم وتعميمها فى سائر الأنحاء"(٢٥).

ويرى الإمام أن أبشع أنواع الظلم هو الظلم الاقتصادى الذى يتمثل فى البخل ببعض المال على المحتاجين و على المصالح العامة، فيقول "لو وزنتم جميع أنواع الظلم الذى يصدر من الإنسان لوجدتم أرجحها ظلم الباخل بفضل ما له على ملهوف يغيثه ومضطر يكشف ضرورته، أو على المصالح العامة التى تقي أمته مصارع الهلكات، أو ترفعها على غيرها درجات، أو تسد الخروق التى حدثت فى بناء الدين أو تزيل السدود والعقبات من طريق المسلمين، فان هذا النوع من الظلم هو الذى لا يعذر صاحبه...(٢٦).

ويعتبر الإمام أن هذا الإنفاق أمر ضروري لتحقيق مصلحة المنفق نفسه والمجتمع كله فيقول "إن الإنسان إنما يكتسب المال من الناس بحذقه وعمله معهم فهو لم يكن غنيا إلا بهم ومنهم، فإذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة فى

(٢٥) المرجع السابق، جـ٣، صـ٢٥ و صـ٢٦.

(٢٦) المرجع السابق، حـ١، صـ١٣٩.

فكره ونفسه أو علة فى بدنه، فيجب على الآخرين الأخذ بيده، وان يكونوا عوناً له، حفظاً للمجموع الذى ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر "[٢٧].

ويتكلم الإمام عن الأثر الاقتصادى لتركز الثروة المتمثل فى ضعف القوة الشرائية وضعف الحافز على العمل وذلك لدى حديثه عن حالة سفه بعض المترفين سفها ينتهي بهم إلى الفقر والعوز، فيقول "وهذه الحالة نراها فى الكثير من أوساط البلاد وأغنيائها، وهذا كما يضر بهم وبحواشيهم يضر أيضا بثروة البلاد نفسها، إذ تحصر الثروة فى دوائر مخصوصة عند أشخاص قليلين، لوازمهم ليست بالكثيرة، فتكسد أسواق الصناعة والتجارة لقلة الراغبين فى الصنائع والبضائع، أى لقلة القادرين على اقتنائها، وتقل الرغبة فى الأعمال الزراعية، إذ يكون الجميع كأجراء لا يهتمون اهتمام الملاك، وأن أغنى البلاد وأسعدها هى البلاد التى توزعت ثروتها على غالب أهاليها، ويزداد الضرر إذا وقعت الأملاك والمبيعات فى أيدى الغرباء والأجانب[٢٨].

أهمية العلم والمعرفة فى عملية "التمدن":

يربط الإمام بين تنمية الثروة ونشر العلوم التى تبين طرق الاكتساب وتطور منها وتأخذ بالأساليب الأحداث من فنون الإنتاج، بل يعتبر ذلك ضرورة لحفظ الملة والدين والدولة، فيقول "... وهانحن نعيد النظر لا نجد سببا لترقيتهم فى الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم، حتى قادتهم إلى

(٢٧) المرجع السابق، جـ ١، ص ١٣٨.

(٢٨) المرجع السابق، جـ٢، صـ١٥.

رشادهم، فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها، ومضرتهم فنكبوا عنها وتركوها، فإذا أول واجب علينا هو السعى بكل جد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا" [٢٩].

ثم يتابع الإمام فيقول "أليس من البين أنه لا دين إلا بدولة، ولا دولة إلا بصولة، ولا صولة إلا بقوة، ولا قوة إلا بثروة، وليس للدولة تجارة وصناعة، وإنما ثروتها بثروة أهاليها، ولا تمكن ثروة الأهالى إلا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب... كيف لا.... وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالأخشاب والنبال، والسهام وخزف الجبال، وما أشبه ذلك مما كان استحصاله بزهيد القيم، وحضرنا زمان نضطر فيه إلى المراكب المدرعة... وغير ذلك من الأسلحة التى تجددت وستجدد فيما بعد... فانهم حتى الآن قد جعلوا من العالم بيت نار، وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جد وإخلاص، وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شر هذه النيران بدون ما يكون عندنا ما يماثلها، إن لم نقل ما يزيد عنها، وهل يمكن استحصالها بالخرز والخزف أو بدانى الحرف؟! كلا... بل لا بد أن تؤتى البيوت من أبوابها، وتطلب المسببات من أسبابها، فلا بد من البحث عن وجوه الاكتساب من وجه الصواب، والاستضاءة بنور المعرفة"[٣٠].

هذا وقد كتب الأستاذ الإمام مشروعاً لإصلاح نظام التربية فى مصر قبل عودته إليها من المنفى عام ١٨٨٩م اشتمل على إصلاح المدارس

(٢٩) المرجع السابق، جـ٣، صـ٢٠.

(٣٠) "تاريخ الأستاذ الإمام "الشيخ محمد عبده"، الجزء الثانى (فى المنشآت)،عن مقالة نشرت بالأهرام"العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية" صـ٤٤،٤٣.

الأميرية والأجنبية... والكتاتيب، كما اشتمل على إصلاح المعلمين والمربين".(٣١)

ودعا الإمام المصلح إلى تعليم أولاد الفقراء وقال فى خطبته فى افتتاح إحدى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التى قاد عملية تأسيسها وأصبح رئيساً لها "إن غرض الجمعية من تربية هؤلاء الأطفال الفقراء هو تهذيب نفوسهم ومساعدة كل واحد منهم على إحياء صناعة والده وترقيتها، إلا أن يرى نفسه مستعدا لصناعة أعلى منها وأرقي... إن الجمعية تساعد بالمال من يتخرج من مدارسها ويشتغل بصناعة والده مدة سنة، وإنها تعلم التلامذة بأنهم لوالديهم أولا، ثم للأقربين، ثم للأمة، وتعلمهم احترام آبائهم وأمهاتهم، وتنزع من نفوسهم الميل إلى وظائف الحكومة"(٣٢).

أهمية الإنفاق الواجب وفى سبيل الله فى عملية التمدن:

يرتب الأستاذ الإمام أهمية بالغة للإنفاق ويجعل تركه سبباً للهلاك وقد ورد فى تفسير المنار "إن أمة يؤدى أغنياؤها ما فرض الله عليهم لفقرائها ولمصالحها العامة لا تهلك ولا تخزي. ولا شئ أسرع فى إهلاك الأمة من فشو البخل ومنع الحق فى أفرادها"(٣٣).

كما يرى الأستاذ الإمام أن إنفاق المال للفقراء وللمصالح العامة من شأنه الارتفاع بمستوى النشاط الاقتصادي والاجتماعي، يقول الإمام "ثم أن الأمة

(٣١) "الأعمال الكاملة" جـ٣، من صـ١٠٧ إلى صـ١٢٥.
(٣٢) "الأعمال الكاملة" جـ٣، صـ١٧٤.
(٣٣) "تفسير القرآن الحكيم"، جـ٣، صـ١٩.

التى يبذل أغنياؤها المال وتقوم بفريضة التعاون على الأعمال، فيكفل غنيها فقيرها، ويحمى قويها ضعيفها، تتسع دائرة مصالحها ومنافعها، وتكثر مرافقها وتتوفر سعادتها، وتدوم على أفرادها النعمة، ما استقاموا على البذل والتعاون فى المصالح العامة" (٣٤).

كذلك فان الإنفاق على الفقراء وفى المصالح العامة من شانه "أنه يكف شر الفقراء، ويدفع عنهم أذاهم فان الفقراء إذا ضاق بهم الأمر واشتدت بهم الحاجة يندفعون إلى الاعتداء على أهل الثروة بالسرقة والنهب والإيذاء بحسب استطاعتهم. ثم يسرى شرهم إلى غيرهم وربما صار فسادا عاما بسوء القدوة فيذهب بالأمن والراحة من الأمة"(٣٥).

والإنفاق ضرورى لاستمرار واتساع دائرة الكسب لأن "الإنسان إنما يكتسب المال من الناس بحذقه وعمله معهم، فهو لم يكن غنياً إلا بهم ومنهم، فإذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة فى فكره ونفسه أو علة فى بدنه فيجب على الآخرين الأخذ بيده، وأن يكونوا عونا له، حفاظا للمجموع الذى ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر"(٣٦).

كذلك فإن الأستاذ الإمام يجعل ما ينفقه الأغنياء على تعليم الفقراء ضرورة لسعادة الأغنياء أنفسهم ويتساءل الإمام "هب انك تركت لولدك ما تبتغى من الثروة، وهو فى موطن خيمت عليه الجهالة، واستحوذت على أهله الضلالة، أتراه يعيش سعيدا بين الأشقياء؟! ويحيا غنيا بين الفقراء؟! ولا تمتد

(٣٤) "الأعمال الكاملة"، جـ٤، صـ٦٧٥.

(٣٥) "تفسير القرآن الحكيم"، جـ٣، صـ٨٣.

(٣٦) "الأعمال الكاملة"، جـ١، صـ١٣٨.

إليه يد الغواية وتغلب عليه طبائع السفهاء... كلا إن المرء بقرينه، ورجل الخير بين أبناء الشرور على خطر، فمن انفق من ماله للعلم والتربية فهو الذى يوطئ لذريته أكناف السعادة، ويوطد لهم دعائم المعيشة الراضية، لأنه يصلح لهم مباءة يعيشون فى ظلالها آمنين"(٣٧).

وأخيرًا فإن الأستاذ الإمام يرى أن الباخل بفضل ماله وبالحقوق الشرعية فيه على ما يصلح شأن أمته وأبنائها لا يستحق أن يكون من المسلمين، يقول الأستاذ الإمام "ترى كثيرا من أغنياء المسلمين عارفين بما عليه أمتهم من الجهل بأمور الدين ومصالح الدنيا... ويعلمون أن إصلاحهم يتوقف على بذل شئ من أموالهم ينفق على التربية والتعليم ونحوهما من المنافع العامة ثم هم يدعون إلى بذل قليل من كثير ما خزنوه فى صناديق الحديد وما ينفقونه فى شهواتهم... فيبخلون بذلك ويرونه مغرما ثقيلا، ولا يحفلون بوعد الله للمنفقين فى سبيله ولا وعيده للباخلين بفضله. وأمثال هؤلاء لا يستحقون أن يكونوا من المسلمين لأنه لا يوجد فى نفس الواحد منهم عرق ينبض فى التألم لمصائب الإسلام"(٣٨).

الادخار والتمدن:

يفسر الأستاذ الإمام حديث رسول الله ﷺ "الاقتصاد نصف المعيشة" بأن المعيشة تقوم بأمرين: الكسب والاقتصاد فى إنفاق ثمرته فمن كسب مالا فقد حاز أحد الأمرين، فإن لم يحز الآخر وهو حسن التدبير فقد نصف معيشته،

(٣٧) المرجع السابق، جـ٣، صـ١٨١.
(٣٨) "تفسير القرآن الحكيم"، جـ٣، صـ٢٢.

أى فقد انهدم أحد ركنى المعيشة، فان حاز الأمر الثاني وهو الاقتصاد فقد تمت له المعيشة"[٣٩] والاقتصاد عنده "هو التوسط فى الإنفاق، بحيث لا يبسط صاحب المال يده كل البسط، حتى لا يبقى فيها شيئا، ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئا، بل ينفق من ماله على حسب حاله، يقدم الأهم فالمهم، فيدفع الضرورة، ويقيم البنية على قدر ما يناسب درجة غناه وفقره، مع حفظ بقية من كسبه للعوارض غير المنتظرة، التى قلما ينجو الإنسان ورودها عليه بغتة من حيث لا يشعر"[٤٠]. ويرى الأستاذ الإمام أن الأمم المتمدنة تعي أهمية الادخار وتمارسه، ولا ينبغى لنا أن نقلدها تقليدا أعمى فى إنفاقها الواسع على الكماليات لأننا لسنا مثلها فى الثراء والتمدن، فهذا الإنفاق الكمالي لهذه الأمم يبقى نسبة مخصوصة من إيراداتها التى تحوزها من كدها وتعبها ولا تمس رأس المال إلا لضرورة.

فيقول الأستاذ الإمام: "الأمم المتمدنة وإن أنفقت الأموال الكثيرة فى تشييد القصور، وتزيين الملابس، وتحسين الأثاث، إلى غير ذلك من المصارف، فإنما يكون على نسبة مخصوصة من إيراداتهم الحائزين لها بالكد والتعب فى إبراز المصنوعات الجميلة والمخترعات الجمة، التى يكسب صاحبها فى قليل من الزمن ثروة واسعة، وقدراً رفيعاً، ولا يجيزون الإنفاق من رأس المال إلا إذا مست ضرورة لا محيص عنها، ومع ذلك فنفقاتهم هذه لا تتجاوز حد اللزوم،

(٣٩) "الأعمال الكاملة"، جـ٢، صـ١٢.

(٤٠) المرجع السابق.

ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم فكلها مؤسسة على قاعدة جلب المصلحة ورفع الحاجة"[٤١].

تقاليد وعادات تعوق عملية التمدن:

ثمة معتقدات وتقاليد ومفاهيم مغلوطة يعتبرها الأستاذ الإمام "عقبات فى طريق تقدمنا ونمو ثروتنا"[٤٢]. ويقارن الإمام بين اهتمامات المصريين واهتمامات الشعوب التى سبقتهم فى مضمار التمدن فبينما يتحاور الأوربيون فيما يلزم اتخاذه لتنمية الأموال وإنشاء المشروعات وتذليل طرق الاستيلاء على مقدرات غيرهم من الشعوب نجد أننا كما يقول الإمام "عن كل ذلك غافلون نواصل الليل بالنهار فى اللهو واللعب، بلغت منا الخرافات والهذيانات مبلغا جسيما حتى استحوذت علينا فأنستنا ذكر الحقائق النافعة والمصالح المهمة... تعقد عندنا المجالس، ولكن على ذكر أنواع الخمور والمسكرات، يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان، ويصرفون ثلثي الليل على قهاوين- (كذا اصطلح وإلا فهى مواضع رجس ودنس) يشربون فيها من المواد الممزوجة بالعقاقير المسممة قدرا لا تسوغه طباع الوحوش الضارية، ولا الأسود الكاسرة، وفى خلال ذلك يتناقشون ويتخاصمون حيث أن كلا منهم يفضل مألوفة من ذلك على مألوفات أصحابه، ويحدد أوصافه، ويذكر محاسنه، ويشرح مزاياه من حور عين، ورقة حضور وعذوبة منطق وما شاكل ذلك"[٤٣].

(٤١) "الأعمال الكامل"،جـ٢، صـ٣٩.

(٤٢) المرجع السابق، جـ٢، صـ٢١.

(٤٣) المرجع السابق، جـ٢، صـ٤٢،صـ٤٥.

ويهاجم الأستاذ الإمام العادات السيئة فى الموالد، ويهاجم إطلاق تعدد الزوجات دون الالتزام فيه بالمقاصد والنصوص الشرعية فيطالب الذى يرون التعدد أن يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعا من العدل وحفظ الألفة بين الأولاد، وحفظ النساء من الغوائل التى تؤدى بهن إلى الأعمال غير اللائقة"(٤٤). ويهاجم الأستاذ الإمام الرشوة التى صار أمرها بينهم "من قبيل العوائد التى لا تشمئز منها طباعهم ولا يستنكرها أحد منهم بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل(٤٥). وأخيرا ينتقد الأستاذ الإمام تقليد الأمم المتمدنة فى الإنفاق على القصور وغيرها من الكماليات دون العمل والكد ظانين أن ذلك هو التمدن. وهو وهم ينطوى على تجاهل الفارق الشاسع فى مستوى الثراء ودرجة التمدن وينحرف بأمتنا إلى مهاوى الإسراف والتهلكة(٤٦).

مآخذ الإمام على تجربة محمد على فى تحقيق التمدن وأسباب فشلها(٤٧):

للأستاذ الإمام مآخذ جوهرية على تجربة محمد على تنتقض التجربة من أساسها. ويمكن القول أن جماع هذه المآخذ أن محمد على فى تجربته كان مستبدا يبنى مجداً شخصياً له الأمر الذى أمات فى الشعب الحافز على العمل

(٤٤) المرجع السابق، جـ٢، صـ٨١.

(٤٥) "الأعمال الكاملة"، جـ٢، صـ٢٦.

(٤٦) راجع "الأعمال الكاملة"، جـ٢، صـ٣٩.

(٤٧) راجع "الأعمال الكاملة"، جـ١، من صـ٨٥١ الى صـ٨٥٨.

والرقى وتبدى ذلك جليا فى دخول الإنجليز مصر لإخماد ثورة عرابى بأسهل ما يدخل به دامر.

وفيما يلي نذكر بعضا من مآخذ الأستاذ الإمام على تجربة محمد علي:

١. أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى.
٢. لم يبن التربية على قاعدة الدين والأدب.
٣. لم يجعل للأهالي رأياً فى الحكومة.
٤. لم يضع حكومة قانونية منظمة يقوم بها الشرع ويستقر العدل.
٥. ولَّى الحكومة الأجانب يحكمون بالأهواء وتجاهل أبناء البلد ممن تربوا تربية حسنة.
٦. قيد حركة المبعوثين إلى أوربا بعد عودتهم فلم ينشروا فى البلاد ما استفادوه.
٧. أفرغ حركة الترجمة من مضمونها لأنها انتهت إلى كتب أودعت المخازن وأغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا.
٨. قضى على الحافز على العمل نتيجة لتسخير العمال وعدم الاستفادة بثمرة العمل.
٩. أضعف إحساس الانتماء إلى الوطن نتيجة المظالم التي وقعت بالناس.

وهذه المآخذ – فيما نرى – تتبلور أساساً فى تجاوز قيم العدل والشورى والحرية والاعتماد على الذات، وجميعها قيم إسلامية أصيلة.

٢/٣ رسالة التوحيد وآفاق الاقتصاد الإسلامى:

كتب الأستاذ الإمام رسالة التوحيد وتضمنت هذه الرسالة ربطاً وثيقاً بين عقيدة التوحيد وبين ما يترتب عليها من آثار سياسية واجتماعية واقتصادية، ونحن نشير فى هذه العجالة إلى بعض جوانب العلاقة الوثيقة التى بينها الإمام بين عقيدة التوحيد وبين بعض الجوانب الاقتصادية فى الإسلام.

فأولا: بين الإمام أن التوحيد هو مصدر حرية الإنسان وعدم عبوديته لغير الله، والحرية أساس لحفظ الحقوق، والحقوق إنما تكون بالعمل. والحرية، وحفظ الحقوق المختلفة، وأهمية العمل الإنساني باعتباره أساساً لهذه الحقوق– تلك جميعها من أسس الاقتصاد الإسلامي.

يقول الإمام "صار الإنسان بالتوحيد عبدا لله خاصة. حرا من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر على الحر. لا علِيّ فى الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع، لا تفاوت بين الناس إلا تفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم. ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم، وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة. وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته، لا بعمله وخدمته. طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه... وأباح لكل واحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته، أو ما تعدى ضرره إلى غيره. وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص

فى عمله. واتسع المجال لتسابق الهمم حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم إلا حقاً محترماً تصطدم به"(٤٨).

ثانيا: بين الإمام أن الفكر الصحيح والأخذ بالسنن واتباع سبل الفضيلة (وتلك هى روح جميع الشرائع) إنما هو سبب التقدم والعمران. يقول الإمام "وأما شأن الأمم... فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء... وطلب كل رغبة من أسبابها وحفظ الأمانة واستشعار الأخوة والتعاون على البر... وغير ذلك من أصول الفضائل- ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة..."(٤٩).

ثالثا: الزكاة والإنفاق فى سبيل الله كأساس للتكافل من جانب، وتحريم الخمر والمقامرة والربا من جانب آخرهما الدواء الاقتصادى للأمراض الاجتماعية وتحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع. يقول الأستاذ الإمام "فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الغنى على الفقير سدا لحاجة المعدم، وتفريجا لكربة الغارم... فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحض صدورهم من الأحقاد على من فضلهم عليهم فى الرزق وأشعر قلوب أولئك صحبة هؤلاء، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين، وأى دواء لأمراض الاجتماع انجح

(٤٨) " رسالة التوحيد" للإمام محمد عبده، صـ١٥٧، صـ١٥٨.

(٤٩) المرجع السابق، صـ١٧٧، صـ١٧٨.

من هذا... أغلق الإسلام بابي الشر، وسد ينبوع فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما لا هوادة فيه"(٥٠).

رابعا: بين الإمام أن الإسلام أطلق حرية العقل فى إطار الشريعة وهو دين الحريات الاقتصادية كلها فى الإسلام (حرية فى إطار الشريعة)، يقول الإمام "نحى الإسلام على التقليد... صاح الإسلام بالعقل صيحة أزعجته من سباته... فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما يقيده... ورده إلى مملكته، يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع فى ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر تحت بنودها"(٥١) ثم يقول "بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما، وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر... وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم: إن نشأة المدنية فى أوربا إنما قامت على هذين الأصلين... وقرر الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام. ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان"(٥٢).

وهكذا ربط الإمام ربطا عبقريا بين العقيدة وشئون الاقتصاد، وبين كيف أن مبادئ الشريعة وقيمها لا غنى عنهما لعملية التمدن حتى فى المجتمعات غير الإسلامية التى سبقت بالتمدن.

(٥٠) المرجع السابق، صـ١٨١.

(٥١) المرجع السابق، صـ١٥٨.

(٥٢) المرجع السابق، ص ١٦١.

٣/٣ بعض آراء الإمام

مفهوم الربا المحرم عند الإمام:

جاء فى تفسير المنار أن "الربا حرم لأنه ظلم ولكن بعض ما يعده الفقهاء منه لا ظلم فيه بل ربما كان فيه فائدة للآخذ والمعطى"(٥٣).

وعند الإمام فإن الربا المحرم الذى يكفر من يجحد تحريمه هو ربا النسيئة فى صورة أن يكون للرجل على آخر دين مؤجل نتيجة عملية بيع أو قرض فإذا جاء الأجل ولا يستطيع الوفاء طلب من صاحب المال أن ينسأ له فى الأجل ويزيد فى المال، وتتكرر هذه العملية حتى يكون أضعافا مضاعفة. وهذه المضاعفة تبرر تحريم الربا بينما يباح السلم الذى ليس من شأنه هذه المضاعفة لأن "الفرق بين الربا القطعى المحرم في القرآن وبين السلم أن الربح فى السلم ليس من شأنه أن يكون أضعافاً مضاعفة كربا النسيئة ولولا ذلك لم يظهر لتحريم الربا مع إباحة السلم فائدة إذ ليس فى أمور المكاسب والمعايش تعبد لا يعقل"(٥٤).

ويفرق الإمام بين الربا المحرم بالقرآن وهو ربا النسيئة فى صورته سالفة الذكر وهو الربا المحرم فى ذاته ويحكم بكفر من يجحد حرمته، وبين الربا المحرم استناداً إلى أحاديث الآحاد أو القياس دون القرآن الكريم وهو ربا محرم تحريم وسائل لسد الذرائع، ومن يجحده ينظر فى عذره، وكما قال ابن القيم فان

---

(٥٣) "تفسير القرآن الحكيم" الشهيد بتفسير المنار تأليف محمد رشيد رضا، جـ٣، صـ١٠٣.

(٥٤) المرجع السابق، جـ٣، صـ١١٩.

ما حرم سدا لذريعة أبيح للمصلحة، ومن صور هذا الربا الصور التى يتضمنها النص التالى الذى نورده نقلاً عن تفسير المنار ويحدد موقف الإمام من الربا المحرم فى الإسلام.

النص: "قد علم مما تقدم فى تفسير الآيات أنها نزلت فى وقائع كانت للمرابين من المسلمين قبل التحريم. فالمراد بالربا فيها ما كان معروفا فى الجاهلية من ربا النسيئة أى ما يؤخذ من المال لأجل الإنساء أى التأخير فى أجل الدين. فكان يكون للرجل على آخر دين مؤجل يختلف سببه بين أن يكون ثمن شئ اشتراه منه أو قرضا اقترضه فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين مال يفي به طلب من صاحب المال أن ينسأ له فى الأجل ويزيد فى المال وكان يتكرر ذلك حتى يكون أضعافاً مضاعفة فهذا ما ورد القرآن بتحريمه لم يحرم فيه سواه وقد وصفه فى آية آل عمران التى جاءت دون غيرها بصيغة النهى وهى قوله عز وجل (٣ : ١٣٠) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً**﴾ وهذه أول آية نزلت فى تحريم الربا فهو تحريم لربا مخصوص بهذا القيد وهو المشهور عندهم"(٥٥).

"وقد علمت أنه لا يدخل فى هذا الربا الذى لا يشك فيه كما قال الإمام أحمد شراء أسوره من ذهب بجنيهات تزيد عليها وزنا لأن هذا الزيادة فى مقابلة صنعة الصانع وقد تكون قيمة الصنعة أعظم من قيمة مادة المصنوع فإنه لا نسيئة فى هذا البيع، بل ولا ربا لا مقابل له ليكون باطلا ولا ضرر فيه على المشترى ولا ظلم. ولا يدخل فيه أيضا من يعطى آخر مالاً يستغله ويجعل له

(٥٥) المرجع السابق، جـ٣، صـ١١٣، صـ١١٤.

من كسبه حظا معينا لأن مخالفة قواعد الفقهاء فى جعل الحظ معينا قل الربح أو كثر لا يدخل ذلك فى الربا الجلي المركب المخرب للبيوت لأن هذه المعاملة نافعة للعامل ولصاحب المال معا. وذلك الربا ضار بواحد بلا ذنب غير الاضطرار ونافع لآخر بلا عمل سوى القسوة والطمع... إن كان شراء ذلك الحلي وهذا التعامل من الربا الخفي الذى يمكن إدخاله فى عموم روايات الآحاد فى بيع أحد النقدين بالآخر ونحو ذلك فهو محرم لسد الذرائع، كما قال ابن القيم لا لذاته وهو من الربا المشكوك فيه لا من المنصوص عليه فى القرآن الذى لا شك فيه فليس لنا أن تكفر منكر حرم..."(٥٦).

الجوانب الاقتصادية فى تحريم الربا:

لماذا أحل الله البيع وحرم الربا؟

نلمح أفكارا اقتصادية إسلامية فيما ورد فى تفسير المنار فى هذا الصدد حيث يستفاد منه:

١. إن التعامل العادل بين الناس فى معايشهم يكون على أساس من المعاوضة التى محلها العمل والمنفعة.
٢. وبينما البيع عملية معارضة اختيارية تكون فيها الزيادة التى يأخذها البائع تقابلها منفعة حقيقية يجنيها المشترى من السلعة التى يحصل عليها من البائع، نجد أن الزيادة فى الربا تعطى لآكل الربا اضطرارا ولا مقابل لها من عمل أو منفعة.

(٥٦) المرجع السابق، جـ٣، صـ١١٥، صـ١١٦.

٣. إن النقدين يختلفان عن السلع التى هى محل البيع. فالنقدان مقياس لقيم الأشياء التى ينتفع بها الناس فى معايشهم فإذا أصبحتا سلعة أدى ذلك إلى تركيز الثروة فى أيدي المرابين نتيجة أخذهم الربا المضاعف من الناس فيجردون الناس من بعض أموالهم بلا مقابل فضلا عن بخس قيم أعمالهم بما يترتب على ذلك من آثار وخيمة.

يستفاد ذلك من النص التالي: ".. أن الله تعالى جعل طريق تعامل الناس فى معايشهم أن يكون استفادة كل واحد من الآخر بعمل ولم يجعل لأحد منهم حقا على آخر بغير عمل لأنه باطل لا مقابل له وبهذه السنة أحل البيع لأن فيه عوضا يقابل عوضا وحرم الربا لأنه زيادة لا مقابل لها. والمعنى أن قياسكم فاسد لأن فى البيع من الفائدة ما يقتضى حله وفى الربا من المفسدة ما يقتضى تحريمه. ذلك أن البيع يلاحظ فيه دائما انتفاع المشترى بالسلعة انتفاعاً حقيقياً لأن من يشترى قمحا مثلا فإنما يشتريه ليأكله أو ليبذره أو ليبيعه وهو فى كل ذلك ينتفع به انتفاعاً حقيقياً (وأقول والثمن فى هذا مقابل للمبيع مقابلة مرضية للبائع والمشترى باختيارهما) وأما الربا وهو عبارة عن إعطاء الدراهم والمثليات وأخذها مضاعفة فى وقت آخر فما يؤخذ منه زيادة عن رأس المال لا مقابل له من عين ولا عمل "أقول وهى لا تعطى بالرضا والاختيار بل بالكره والاضطرار "[٥٧].

"وثم وجه ثالث لتحريم الربا من دون البيع وهو أن النقدين إنما وضعا ليكونا ميزانا لتقدير قيم الأشياء التى ينتفع بها الناس فى معايشهم. فإذا تحول هذا وصار النقد مقصوداً بالاستغلال فان هذا يؤدى إلى انتزاع الثروة من أيدى

(٥٧) المرجع السابق، جـ٣، صـ١٠٨.

اكثر الناس. فينمو المال ويربو عندهم ويخزن فى الصناديق والبيوت المالية المعروفة بالبنوك، ويبخس العاملون قيم أعمالهم لأن الربح يكون معظمه من المال نفسه وبذلك يهلك الفقراء".(٥٨)

فتوى الإمام فيما يتعلق بالتأمين:

السؤال: "ما قولكم دام فضلكم فى شخص يريد أن يتعاقد مع جماعة على أن يدفع لهم مالا من ماله الخاص على أقساط معينة ليعملوا فيه بالتجارة، واشترط معهم أنه إذا قام بما ذكر وانتهى أمر الاتفاق المعين بانتهاء الأقساط المعينة، وكانوا قد عملوا فى ذلك المال، وكان حيا، فيأخذ ما يكون له من المال مع ما يخصهم من الأرباح، وإذا مات فى أثناء تلك المدة فيكون لورثته أو لمن له حق الولاية فى ماله أن يأخذوا المبلغ تعلق مورثهم مع الأرباح. فهل مثل هذا التعاقد الذى يكون مفيدا لأربابه بما ينتجه لهم من الربح جائز شرعا؟ نرجوكم التكرم بالإفادة، افندم.

الجواب: "الحمد لله وحده: لو صدر مثل هذا التعاقد بين ذلك الرجل وهؤلاء الجماعة على الصفة المذكورة كان ذلك جائزا شرعا، ويجوز لذلك الرجل بعد انتهاء الأقساط والعمل فى المال وحصول الربح أن يأخذ، لو كان حياً، ما يكون له من المال مع ما خصه من الربح، وكذا يجوز لمن يوجد بعد موته من ورثته أو من له ولاية التصرف فى ماله بعد موته أن يأخذ ما يكون له من المال مع ما أنتجه من الربح، والله اعلم"(٥٩).

---

(٥٨) المرجع السابق، جـ٣، صـ١٠٨، صـ١٠٩.

(٥٩) "الأعمال الكاملة للامام الشيخ محمد عبده"، جـ١، صـ٨٠٥، صـ٨٠٦.

ربح صندوق توفير البريد:

سئل الأستاذ محمد رشيد رضا عما إذا كان الإمام له فتوى تحل هذه الأرباح وكان جوابه:

"إن كان للأستاذ فتوى رسمية فى مسألة صندوق التوفير فهى توجد فى مجموعة فتاويه بوزارة الحقانية ومنها تطلب، وأنا لم أر له فتوى فى ذلك، ولكنى سمعت منه فى سياق حديث عن مقاومة الخديوى له ما حاصله:

أن الحكومة أنشأت صندوق التوفير فى مصلحة البريد بدكريتو خديوى (أمر عال) ليتيسر للفقراء حفظ ما زاد من دخلهم عن نفقاتهم وتثميره لهم، وقد تبين لها أن زهاء ثلاثة آلاف فقير من واضعي الأموال فى صندوق البريد لم يقبلوا أخذ الربح الذى استحقوه بمقتضى الدكريتو. فسألتنى الحكومة: هل توجد طريقة شرعية لجعل هذا الربح حلالاً، حتى لا يتأثم الفقراء من المسلمين من الانتفاع به؟؟ فأجبتها مشافهة بإمكان ذلك بمراعاة أحكام شركة المضاربة فى استغلال النقود المودعة فى الصندوق. فذاكر رئيس النظار الخديوى فى تحرير الدكريتو الخديوى وتطبيقه على الشرع، فأظهر نحوه الارتياح لذلك. ولما قال له رئيس النظار: إننا استشرنا المفتى فى ذلك، غضب غضباً شديداً، وقال كيف يبيح المفتى الربا، لابد أن استشير غيره من العلماء فى ذلك".

"ثم جمع سموه جمعية من علماء الأزهر فى "قصر القبة" وكلفهم وضع طريقة شرعية لصندوق التوفير، ليظهر أمام العامة بأنه هو المحامى عن الدين والمطبق للمشروع على الشريعة، وأن الحكومة كانت عازمة على إكراه المسلمين على أكل الربا بمساعدة المفتى لولا تداركه الأمر.

وقد وضع له العلماء مشروعا قدمته "المعية" لنظارة المالية... وأن نظارة المالية عرضت على المشروع لإقراره، فوجدته مبنياً على ما كنت قلته للحكومة شفاها"(٦٠).

(٦٠) المرجع السابق، جـ١، ص ٨٠٤.

٤/ المبحث الثالث
الإمام محمد عبده: الزعيم

فى هذا المبحث نعرض لجانب من منجزات الإمام فى الواقع، والتى كانت إعمالا لمنهجه الإصلاحي:

١/٤ الجمعية الخيرية الإسلامية[٦١]:

فى عام (١٣١٠هـ – ١٨٩٢) تم تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية، وقام بتأسيسها خمسة من الرواد: الأستاذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين وحسن عاصم وعلى فخرى والثلاثة الأول فى غنى عن التعريف، وأما الرابع والخامس فرائدان فى إصلاح القضاء وضالعان فى أعمال الجمعية ورسالتها. وانضم إلى هؤلاء بعد قليل الهلباوى بك النقيب الأول للمحامين ومحامى الحريات والقضايا القومية. واتسعت عضويتها بعد ذلك حتى صار عدد أعضائها ٦٨٠ عضوا عام ١٣١٨هـ – ١٩٠٠م.

قامت هذه الجمعية منظمة إصلاحية تقاوم طمس هوية الأمة وقيمها، وتعمل على وحدة ونهضة الأمة، وتبث التكامل بين أبنائها، وتنشر مصابيح العلم بين ربوعها.

وفى مقال للإمام محمد عبده بالوقائع المصرية العدد ٩٤٢ الصادر فى ذي القعدة ١٢٩٧هـ – ١٨٨٠م تحت عنوان "حكومتنا والجمعية الخيرية"، قال الإمام: "ان مما تثلج به الصدور، وترتاح له النفوس، ويبعثنا على الثقة بحسن

(٦١) اعتمدنا فى ذلك علي: "الإمام محمد عبده" للأستاذ عبد الحليم الجندي، وعلى جريدة الوقائع المصرية– العدد المشار إليه.

مستقبلنا ما نراه من إقدام أبناء قطرنا على الأعمال الخيرية، وجدهم ونشاطهم فى تأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقاصد لنجاح البلاد وتقدمها، وأخذهم بالوسائل الحقيقية التى تؤدى إلى ذلك وان سبقنا إليها سكان الممالك المتمدنة وبلغوا بها آمالهم من الثروة والقوة وكمال السطوة. وهى إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة تختلف أشكالها وتتحد مقاصدها... ويزيدنا أملا وثقة ما نشاهده من تأييد الحكومة السنية لتلك الجمعيات... ".

وهذه الجمعية كانت مدرسة للعمل الإسلامى العام ربى فيها الأستاذ الإمام أجيالا قادت مصر فى كافة نواحى شئونها، وقادها من بعدهم تلاميذ لهم على ذات المنوال. فمن بين أعضاء هذه الجمعية بخلاف الذين ذكرناهم من أعضائها المؤسسين "حشمت وزير المعارف الذى نشر التعليم الابتدائي– كما يسمى الآن– فى ريف مصر وصعيدها فملأها بالنور وقد اختلف مع الإنجليز من أجل الدفاع عن اللغة العربية مثلما اختلف معهم سعد زغلول. ولطفى السيد باشا أبو الفلسفة وأول مدير للجامعة ورئيس لمجمع اللغة العربية وللجمعية الخيرية، وأستاذ مصطفى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل ومحمود عزمى وطه حسين ومنصور فهمي. أما على إبراهيم باشا فأبوا الجراحة الحديثة، والثلاثة الأخيرون مديرون للجامعة المصرية. وطلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى ومحمد فريد رئيس الحزب الوطنى الذى ملأ مكان مصطفى كامل باقتدار بعد إنشاء الحزب الوطنى بشهر وبعض الشهر. كما أن أربعة من أعضاء هذه الجمعية هم سعد زغلول وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود كانوا رؤساء حكومات برلمانية لها اختصاصات اكبر من اختصاصات الملك...

وباختصار قاد أعضاء هذه الجمعية فرادى أو مجتمعين نهضة مصر فى مطلع القرن العشرين. وقد قامت الجمعية بنشاط بارز لعل من أهم أوجهه:

أولا: إنشاء المدارس التى انتشرت فى القاهرة والأقاليم وكان من بين أغراضها الأساسية:

١- العناية بالتربية الدينية ومقاومة مدارس التبشير التى نشرها المبشرون.

٢- العناية باللغة العربية وتصحيح عيوب التعليم الذى فرضه الإنجليز فى مدارس الحكومة... وكان على التلاميذ حفظ ثلاثة الأجزاء الأخيرة من القرآن واكبر قدر من الحديث والسيرة والشعر والأدب العربى والأناشيد الوطنية، كما يؤدون الصلاة عند أذان الظهر. وكان التعليم بالمجان"[٦٢].

ثانيا: شرعت الجمعية فى بناء جامعة أهلية وتولى سعد زغلول بعد وفاة الإمام ١٩٠٥م أمانة لجنة إنشاء الجامعة وحتى سنة ١٩٠٦م عندما آلت إلى قاسم أمين بعدما عين سعد وزيرا للمعارف "وقامت الجامعة ١٩٠٨م، وأوفدت بعثتها الأولى ١٩٠٨م وفيها محمود عزمى ومنصور فهمى وتوفيق الساوى وسيد كامل وسبعة آخرون، وكانت رسالة منصور فهمى فى السوربون عن "المرأة فى الإسلام".

ثالثا: كانت الجمعية نبراس تكافل تجمع المال وتفرقه بين المحتاجين ولها باع خير طويل فى الأزمات والكوارث، ومن ذلك دورها فى نجدة منكوبى

(٦٢) "الإمام محمد عبده" للأستاذ عبد الحليم الجندي، صـ٦٥، صـ٦٦.

حريق مدينة ميت غمر سنة ١٩٠٢م، حيث تولى الإمام بنفسه تجميع التبرعات للمنكوبين وتوزيعها عليهم.

رابعا: أقامت الجمعية مستشفاها الشهير على ضفاف النيل، وهو الآن اكبر المستشفيات غير الحكومية فى أفريقية.

خامسا: كانت إدارة الجمعية مثالا للتبارى فى إحقاق الحق وتداول الرأى والمشورة.

سادسا: نجحت الجمعية فى إزكاء روح الأخوة فى الوطن، ومما يدل على ذلك أن من بين التبرعات التى قدمت لها تبرعات من أقباط. وليس ذلك بغريب على جمعية وضعت نصب عينيها "تأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقاصد لنجاح البلاد وتقدمها" كما أنه ليس ذلك بغريب على زعيم وإمام يرى أن "خير أوجه وحدة الوطن الامتناع عن الخلاف والنزاع فيه".

هكذا ففى مواجهة الفساد الذى أتى به التدخل الأجنبى بامتيازاته الأجنبية ومحاكمه المختلطة... ثم أخيرا بالاحتلال العسكري، هذا الفساد كان يريد أن يمحو هوية الأمة الإسلامية فى مصر وقيم الإسلام السامية، وتمكين المبشرين والمستهترين من عقول أبنائها وبث الفرقة بين المسلمين والأقباط. فى مواجهة ذلك تم تأسيس الجمعية الشرعية لتقاوم الفساد وتنشر وتعزز القيم الذاتية للأمة قيم العدل والحرية والطهارة والحلال...، وإزكاء روح التكافل، وتربية وتعليم النشء على الأخذ بما من شأنه نهضة الأمة وتقدمها ووحدتها.

وثمة أمور كثيرة فى هذه الجمعية تدل على تبنيتها للقيم الإسلامية فى منهجها الإصلاحى: فرائدها إمام الإصلاح بالدين الإسلامي، وأعضاؤها إما

تربوا فى الأزهر أو من أصحاب الثقافة الإسلامية المنافحين عن الإسلام والمؤمنين بقيمه فى أصول الإسلام الخالية من الشوائب والغلو. وعلى أية حال فقد تربوا فى مدرسة الإمام محمد عبده ونالهم من قبسه ثم صاروا فى حياته- وبعد مماته- من قادة الوطن وربوا أجيالا سارت على منواله، فكانت لهم- ولا تزال- صولات وجولات فى الدفاع عن استقلال الوطن وعن الحرية والعدالة.

وليس من قبيل الصدفة أن يعقد مجلس إدارة هذه الجمعية من بداية نشأتها ولمدة طويلة فى مسجد السلطان الغورى بما لذلك من مغزى يتعلق بطبيعة عمل ينطلق من مسجد من مساجد الله، ويرتكز على منهجه.

٢/٤ إصلاح الأزهر والقضاء الشرعى والأوقاف:

اقترح الشيخ على الخديوى عباس الثانى الذى لمس منه الإمام تضجرا من تدخل الإنجليز فى شئون البلاد وجهاده لأخذ ناصية الحكم منهم. اقترح الإمام عليه ثلاث نواح لا تزال بعيدة عن تدخل الإنجليز ولا يعارضون العمل لإصلاحها فهى دينية صرفة وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية. واستصدر الإمام قانونا للإصلاح عام ١٨٩٦م. وقد شمل مشروع الإصلاح الذى قاده الشيخ الإصلاح المالى والتعليمى وإدخال عيون الكتب فى فروع العلم وتحطيم الخوف من أى جديد فيه منفعة"[٦٣] كما قوى ساعد جمعية إحياء التراث العربي، والشيخ رئيسها، ومكن للشيخ الشنقيطى أن يظهر المخطوطات ذوات الشان.

(٦٣) "الإمام محمد عبده" للأستاذ عبد الحليم الجندي"، صـ٧٧.

"وكان صدى صوته يصدع مسامع الخديوي... إذ كان يأكل مال الأوقاف بالباطل ويضن بها على عمال المساجد وأئمتها والشيخ يمطره بالاحتجاجات فى شكل قرارات أو مذكرات إلى مجلس الأوقاف"(٦٤).

وكان من آثار القانون الجديد عام ١٨٩٦م "قصر غلة الأوقاف المخصصة للتدريس على المدرسين بعد أن كان أبناء الموتى منهم يحلون محلهم دون نظر لمصلحة المدرسين المستحقين. فأمسى معاش الأبناء مسئولية على الشيخ يؤديها من ماله الخاص ومال أصحابه مع أن من آبائهم من كانوا خصوما له"(٦٥)

واقترح الشيخ ضمن تقريره لإصلاح القضاء الشرعى تكوين لجنة لتقنين المعاملات من الشريعة، وفى عام ١٩٢٠م صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠م فيما يتعلق بالمحاكم الشرعية، وعلى هدى مقترحات الشيخ للأخذ من اكثر من مذهب.

وكانت مقترحات الإمام خطوة ومنارة فى طريق شهد فيما بعد صدور دستور عام ١٩٧١م فى مصر ينص فى مادته الثانية على أن "الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية والشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع".

(٦٤) المرجع السابق، صـ١٢٩.

(٦٥) المرجع السابق، صـ٧٧.

٥/ المبحث الرابع
محمد رشيد رضا: تلميذ الإمام وحامل راية فكره

حمل السيد محمد رشيد المرضى (أو رضا) لواء فكر الإمام، وأنشأ جريدة المنار بعد استشارة الإمام لتكون منارة لهذا الفكر المستنير. ونخصص هذا المبحث لعرض نماذج من نصوص وردت بجريدة المنار تبلور فكر مصدرها السيد محمد رشيد رضا، والتى يستبين منها أنه قبس من فكر الإمام محمد عبده:

فـأولا: يترسم السيد/ محمد رشيد رضا ذات منهج الإصلاح المرتكز على الدين الإسلامى فيقول عن أغراض الجريدة فى عددها الأول أنها "تحث على التمسك بالدين وتبين أنه أساس السعادة وأن الكفر فساد العمران. وتدرأ الشبه الواردة على الشريعة الإسلامية، وتدحض مزاعم من قال أنها حجاب كثيف وسد حائل بين الآخذين بها وبين المدنية الصحيحة لجهلهم بما انطوت عليه من الحكم الرائعة والأحكام العادلة وترشد العاملين إلى أن محاولات الطفور غرور وأن طلب الغاية فى البداية جهل وحرمان، وأن مراعاة السنن الإلهية ومسايرة النواميس الطبيعية كافية بتوفيق الله تعالى لبلوغ كل مقصد ونوال كل مرام"(٦٦).

ويبين السيد محمد رشيد رضا أسباب تأخر المسلمين وأنها ليست فى الدين بل هى من توهم العامة والجهال فيقول: "شعرت جميع الشعوب والأمم من جميع الملل والنحل فى الشرق بشدة حاجتها إلى التربية والتعليم المفيدين

(٦٦) المنار– العدد الأول، السنة الأولى.

للقوة والعزة المتمين للثروة الموصلين للسعادة إلا أن المسلمين كانوا أبطأ شعوراً وأضعف إحساساً بذلك، وأجدر بهم أن يكونوا هم السابقين لجميع الشرقيين إذ الغربيون لم يهتدوا لذلك إلا بما اقتبسوه من أنوارهم من قبل. ولم يكن السبب فى ذلك ضعف قابلية المسلمين واستعدادهم لأن الاستعداد الطبيعى لا يختلف باختلاف الاعتقاد ولا تعاليمهم الدينية لأنهم كانوا أشد تمسكاً بالدين علما وعملا أيام اخذوا الفنون عن مخالفيهم وجدوا فى إنمائها واستثمارها.

ولكن العلوم لما دالت إلى الغرب وغمرته بخيراتها وبركاتها ثم اندفع أهله إلى الشرق مكتسبين ومستعمرين كان أول من اخذ عنهم معارفهم النصارى للتناسب بينهم فى الدين ومذاهبه... وعادى المسلمون علومهم لعداوتهم السياسية حتى توهم عامتهم وجهالهم أن تلك العلوم مضادة للدين نفسه. وبقى المسلمون أجيالاً فى الكسل والخمول لا يرجعون إلى آداب دينهم التى نهضت بهم فى النشأة الأولى ولا يتمسكون بالفنون العصرية التى نهض بها غيرهم عادوا الأولى عملا، والثانية قولا وعملا، وتقيدوا بسلاسل العادات المضرة والتقاليد المكسلة حتى صاروا مضغة بين الأفواه"(٦٧).

وتعرض محمد رشيد رضا لأثر الابتعاد عن قيم الدين فقال: "أغنياء المصريين عمدهم ما داموا لا ينفكون عن السفه والتبذير فهم واقعون فى غمرات الديون التى تجلب على بلادهم ريب المنون، وإن أنبتت تربتهم الذهب الوضاح وأعفتهم الحكومة من كل إتاوة وخراج"(٦٨).

(٦٧) المرجع السابق العدد (٢٠)، السنة الأولى

(٦٨) المرجع السابق، العدد (٢٧)، السنة الأولى.

وفى دعوته للتعليم يدعو السيد محمد رشيد رضا إلى التعليم الذى يرتكز على الدين: فيقول بعد سرد العلوم التى ينبغى تعلمها. "هذا ما عن لنا فى هذا المقام كتبناه على طريق الإجمال فإذا سار عليه القائمون بتشييد المدارس نرجو أن يكون سعيهم مؤديا لسعادة الأمة والوطن وإلا كان إغواء وإضلالاً ووبالاً ونكالاً. فقد جربنا التعليم بغير الصبغة الدينية فما زادنا إلا بلية ورزية"(٦٩).

ولا يمانع محمد رشيد رضا من الأخذ عن الأمم القوية طرقها فى التربية والتعليم شريطة مراعاة حالتنا الدينية والاجتماعية، فيقول: "جرت الأمم القوية فى التربية والتعليم على طرق لا مندوحة لنا عن محاكاتها فيها ومجاراتها عليها كما وكيفا مع اعتبار حالة بلادنا الدينية والاجتماعية، ومراعاة قدرتنا المالية والعلمية لأننا نعلم ان عزة تلك الدول وتقدمها على نسبة تقدم التربية والتعليم فيه"(٧٠).

وثانيا: يترسم محمد رشيد رضا خطا الإمام فى تبيين أهمية التربية والتعليم كأساس لعملية النهوض عن طريق الدين، وكذا يتبين أهمية تصحيح الغرض من التعليم:

فغرض الجريدة الأول "الحث على تربية البنات والبنين.، والترغيب فى تحصيل العلوم والفنون ... وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم والتنشيط على مجاراة الأمم المتمدنة فى الأعمال النافعة وطروق أبواب الكسب والاقتصاد، وشرح الدخائل التى مازجت عقائد الأمة، والأخلاق الرديئة التى أفسدت الكثير من عوائدها. والتعاليم الخادعة التى لبست ألغى بالرشاد. والتأويلات الباطلة

(٦٩) المرجع السابق، العدد (٣٠)، السنة الأولى.

(٧٠) المرجع السابق.

التى شبهت الحق بالباطل"[٧١] ويفصح عن منهجه بطريقة قاطعة فيقول "ورأينا أن سبب التقدم الذى يجمع كل الأسباب وترجع إليه جميع الوسائل هو تعميم التربية والتعليم فى جميع عناصر الأمة على طريقة واحدة"[٧٢].

وعن هدف العملية التعليمية كما جاء المنار "إنما العلم الذى يجعلنا أمة عزيزة سعيدة يحافظ كل فرد فيها على جامعته الجنسية والدينية والوطنية ويشرب فى قلبه أن ما أصاب أمته من حسنة فنعمتها شاملة له، وما أصابها من سيئة فمعرتها لاحقة به، ولقد قال أستاذنا الأكبر العلامة الشيخ محمد عبده كلمة بليغة فى العلم الذى نحن أحوج إليه لإسعادنا وهى "العلم ما يعرفك من أنت ممن معك"[٧٣].

وثالثا: يتبين السيد محمد رشيد رضا تماما أهمية الاقتصاد فى عملية التمدن:

فقد جاء فى أغراض الجريدة أنها "تنبه العثمانيين على أن الشركات المالية هى مصدر العمران وينبوع العرفان وأن عليها مدار تقدم أوربا فى الفنون والصنائع لا على الملوك والأمراء..."[٧٤].

وعندما ما يذكر العلوم والفنون التى ينبغى تعلمها يجعل ضمنها علم الاقتصاد، ويقول عنه "... وعلم الاقتصاد الذى يبحث عن إنماء الثروة وحفظها، وهو من أركان المدنية الحاضرة. وما اضر بهذه البلاد (المصرية) إلا

(٧١) المرجع السابق، العدد الأول، السنة الأولى.
(٧٢) المرجع السابق، العدد الأول، السنة الأولى.
(٧٣) المرجع السابق، العدد (٣٠)، السنة الأولى.
(٧٤) المرجع السابق، العدد الأول، السنة الأولى.

البعد عن العلم والعمل بالاقتصاد. ولما كان هذا العلم من مقومات الأمم والدول سمى "علم الاقتصاد السياسي..."(٧٥).

ورابعا: فان السيد محمد رشيد رضا كأستاذه الإمام يعي أهمية دور الأغنياء ، والعلماء فى عملية التمدن، جاء فى المنار "وأنه يتعين على علماء الأمة وأغنيائها أن يوافقوا رغبته فى إصلاح داخلية البلاد والعمل على ترقيتها لا سيما بقيم التربية الحقة والتعليم الصحيح... فهما الكافلان باستئصال الأمراء الخونة والحكام الظلمة... المطهران للنفوس من أدران الرذائل المسبغان على الأرواح حلل الفضائل. بل هى الروح الذي تحيى به الشعوب والأمم (لاحظ اثر فكر السيد جمال الدين الأفغاني أيضا)... ولا يمكن الوصول إلى الغرض منهما إلا بإرشاد العلماء وإرفاد الأغنياء. ومن قصر فى وظيفة منهما فهو خائن وطنه عدو لأمته وملته... فالجهل خير من علم لا ينفع، والإملاق (الفقر) افضل من ثراء (غنى) لا يرفع... ومن يخزن المال فى صناديق حديد ويمسكه عن كل مشروع مفيد وهو يرى بلاده تباع للدخلاء. وأزمة ثروتها تتنازعها الغرباء. وأبناءها منغمسين فى الترف. وبناءها على شفا جرف فهو الخاسر المغبون والخائن المأمون.. إنفاقه سفه وتبذير، وإمساكه شح وتقتير، بل خراب وتدمير"(٧٦).

وخامسا: وأخيراً– وليس آخراً – فان السيد محمد رشيد رضا يترسم منهج أستاذه بخصوص أهمية الاستقلال الاقتصادي، وأهمية بث القيم الإسلامية، جاء فى المنار "إذا كنت صحيح العقل والجسم فكيف ترضى أن

(٧٥) المرجع السابق، العدد (٣٠)، السنة الأولى.

(٧٦) المرجع السابق، العدد (٣)، السنة الأولى.

تقيم الأجنبى وصيا وقيما عليك بحيث إذا لم يقدم لك مادة طعامك ولبوسك وكنك وأدوات الوصول إليها تموت من الجوع والعري... لا يخدعنك ما ترى فى بلادك من مظاهر الثروة على بعض أفراد التجار فلو أقفلت فى وجوههم مصارف (بنوكة) أوربا وغلت أيدى تجارها عن إمدادهم لحاصوا حيصة الحمر... لا تغرنك أرض بلادك (أطيانك) الواسعة فقد نقصها الغربيون من أطرافها بل كادوا يحيطون بأكنافها. وقبضوا على موارد الثروة منها حتى انهم ليبيعونك ماءها الذى تحتسيه... لا تزدهينك عظمة حكامك فقد أمسوا مغلوبين على أمرهم. ومنفذين لأوامر غيرهم"(٧٧).

وماذا عن سبب عدم الاستقلال؟ جاء فى المنار "ولست أخص بهذا ما يفتأت به رجال الإنجليز على الحكومة المصرية من نحو بيع سفنها وصفاصفها (أراضيها المستوية) مثلا بل أعم به كل قانون جارت به الحكومات الشرقية (لاسيما الإسلامية) أهل أوربا فجارت بذلك وعدلت عن طريق الفضيلة الدينية كإباحة السكر والبغاء... قلنا انهم مغلوبون على أمرهم ولكن هذا الغلب لم يجبروا عليه بكرى المدافع ورصاص البنادق وإنما لضعف فى الدين ووهن فى العزيمة وجهل بعاقبة الأمور. أدهشتهم عظمة أوربا واستهوتهم زخارف مدنيتها فظلوا يتقربون إليها ويقلدونها بأقبح ما لديها من غير روية ولا بصيرة..."(٧٨).

ثم يبين السيد محمد رشيد رضا أن الإنسان هو عصب عملية التمدن، جاء فى المنار "دع عنك التفكير بسيئات الحكومات واصرف بصرك إلى

(٧٧) المرجع السابق، العدد (٣٠)، السنة الأولى.
(٧٨) المرجع السابق.

وطنك ماذا يجب له عليك" يتجلى لك انك أنت دعامة وجوده وروح حياته. بك يعيش ويحيا وبك يموت ويفني. بك يعز ويغنى وبك يذل ويشقي. وإذا تجلى لك هذا تشعر بان لك شانا عظيما فى الوجود وتمس بقواك المقدسة التى أودعها مدبر الكون فى جرثومتك الإنسانية فتندفع إلى طلب الفضيلة الحقيقية والكمال الصحيح الذى أنت له أهل"[٧٩].

(٧٩) المرجع السابق.

٦/ المبحث الخامس
محمد طلعت حرب باشا: تلميذ الإمام وزعيم نهضة مصر الاقتصادية

محمد طلعت حرب باشا رائد الاقتصاد المصرى وأحد تلاميذ الإمام عمل معه فى مجلس إدارة الجمعية الخيرية سكرتيرا عاما فوكيلا لها حتى وفاته .وهو تلميذ نجيب تلقى على أيدي الإمام دروسا فى العمل الاجتماعى والاقتصادي فى إطار منهجه الإصلاحي الإسلامي.

ونذكر فى هذا الصدد أن الإمام خطب فى أهل المحلة الكبرى عند افتتاح مدرسة الجمعية الخيرية فيها فى عام ١٩٠٥م فأعلن بصفته رئيسا للجمعية أن "لها الرجاء بهمة وجهاء المحلة وأهل الغيرة من أغنيائها فى تأسيس قسم صناعى فى هذه المدرسة فإن المحلة بلدة كانت معروفة بالصناعة وقد وعد صاحب السعادة احمد باشا المنياوى بأنه مستعد لمساعدة الجمعية على إنشاء القسم الصناعى.."

وقد نفذ طلعت حرب – فيما بعد – وصية الأستاذ الإمام وأنشأ فى المحلة شركة المحلة للغزل والنسيج لتصبح كبرى الشركات لصناعة النسيج فى القارة الأفريقية وأم الشركات الصناعية فى مصر"(٨٠).

ونحن نرى أثر الإمام فى أعمال وخطب طلعت باشا حرب اكثر أن تحصى، ونذكر منها:

أنه طالما نادى الإمام محمد عبده بالوقوف على حقيقة التمدن لا الاكتفاء فيه بالشكل، وجعل الإمام التفنن فى الصنائع فصل من فصول هذا

(٨٠) "الإمام محمد عبده" للأستاذ عبد الحليم الجندي.

التمدن، ولطالما نادى الأستاذ الإمام بتحقيق الاستقلال بجميع أوجهه. ونفذ محمد طلعت حرب باشا وصية أستاذه فأنشأ بنك مصر بنكا وطنيا مستقلا وجعل أسهمه اسمية واشترط التبعية المصرية فى مالكيها . ودافع عن ذلك بأن هذا مطلب للاستقلال الاقتصادي يهون دونه ما قد يترتب على ذلك من تضييق لدائرة التداول قد يفوت على المساهمين قدرا من الأرباح . يقول طلعت حرب فى خطبة له فى حفل تأسيس بنك مصر فى مساء يوم الجمعة ٧ مايو سنة ١٩٢٠م "يقولون إن فى جعل الأسهم إسميه واشتراط التبعية المصرية فى مالكيها تضييقا لدائرة التداول وتصعيبا لحركة هذا التداول . ونقول إن الأمة التى تريد استقلالها الاقتصادى يجب عليها أن تشترى هذا الاستقلال بقليل من التضحية .... ماذا يضر الأمة التى ألفت الوقف – لو وقف بعض بنيها جزءا من مالهم على استقلال بلادهم الاقتصادى واعتبروا الأسهم من أول يوم وقفا لا بيع فيه ولا شراء على أن الأمر بالعكس فالبيع جائز بقيد واحد، وهو أن المشترى يجب أن يكون مصريا"(٨١).

وعندما تحدث عن الهدف من إنشاء بنك مصر اتضح تأثره التام بمنهج الإمام، إذ الأموال أصلا خلقت للتداول كما أنه ينبغى استخدامها فى بناء الصناعات وتحقيق التمدن، يقول طلعت حرب "فى البلاد أموال كثيرة مخزونة ومعطلة كما قلنا، وظيفتها فى الأصل التداول بين الناس ولها فى كل حركة بركة وفى كل دورة ربح لرابح"... ولمساعدة التجارة والصناعة والزراعة المصرية وإصلاح الأحوال الاقتصادية وإيجاد الكفاءات المالية..."(٨٢).

(٨١) "مجموعة خطب محمد طلعت حرب باشا"، من صـ٥٧– صـ٦٠.

(٨٢) المرجع السابق، صـ٦٥.

وجاء أيضا، فى هذا الصدد، فى خطبة له فى بيروت فى أوائل عام ١٩٢٥م "وتخصص من فائض أرباحه (أى البنك) بعد تكوين احتياطى قانونى واحتياطى فوق العادة نقول تخصص من فائض ربحه بعدما تقدم احتياطى ثالث، أو رأس مال جديد مستقل عن رأس مال البنك وأرباحه واحتياطيه. واستخدم هذا الاحتياطى الثالث فى إنشاء الصناعات القومية الضرورية للبلاد المصرية"(٨٣).

ويقول أيضاً فى خطبة له فى فيينا فى حفلة الطلبة المصريين لتكريمه فى ٢٥ يوليه سنة ١٩٢٥م: "ولا يفوتني–وأنا أشير إلى حالة النمسا الاقتصادية– أن أذكركم ببنك مصر، وان أنبئكم بأنه قد خطا من جهته فى حياة الأمة المصرية خطوة عظيمة نرجو أن تكون من أحسن الأسس لبناء الاستقلال الاقتصادى للبلاد".(٨٤)

وقد جعل الإمام إصلاح اللغة العربية أحد هدفيه باعتبارها معين الأصالة ودليل الهوية، ونجد تأثير ذلك على فكر محمد طلعت حرب. ففى إحدى خطبه فى يولية سنة ١٩٢٥م: يقول "قالوا –من حيث يجهلون أو يتجاهلون منزلة لغتنا– أن اللغة العربية لا تصلح للتعليم فى مدارسنا لأنها تقصر عن استيعاب العلوم العصرية، فصبرنا على مضض نرى التعليم يجرى بلغة غير لغة البلاد، حتى عاد إلينا بعض الأمر من شئوننا فجعلنا التعليم بالعربية أساساً

(٨٣) المرجع السابق، صـ١٣٨.

(٨٤) المرجع السابق، صـ١٥٨.

فى الدراسة الابتدائية والمتوسطة والعالية- ولو أن العلوم كلها لا تدرس الآن فى المدارس العالية باللغة العربية لصعوبات وقتية لا تلبث أن تزول"(٨٥).

ونلمح تأثير الإمام محمد عبده فى تفكير طلعت حرب فى إدراك الأخير لأهمية التربية والتعليم وتصحيح الهدف منهما. يقول طلعت حرب فى حفل توزيع الجوائز السنوية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٢٤م: "من الخطأ الفادح أن نتصور أمة الولايات المتحدة أمة عمل ومال دون أن تكون أمة علم وآمال... وهذه الأمة لم تصل إلى ما وصلت إليه من عظمة الثروة وجلال الفكرة إلا بفضل نظام التعليم والتربية فيها"(٨٦) ثم يقول "وإذا نظرنا إلى كلية الآداب والعلوم، على حالة دراستها الثانوية الحاضرة وجدنا أنها خطوة عظيمة فى إصلاح التعليم بمصر، لأن التعليم لدينا قد سار زمنا طويلا على قاعدة إعداد رجال موظفين خاضعين للرؤساء البريطانيين لا على قاعدة تخريج رجال قادرين على أن يتحملوا مسئولية الأعمال ويزاولوها بقدم راسية وعزيمة صادقة. فنشأ عن ذلك أن جاءت برامج التعليم صماء جافة تتجه إلى العقل دون أن يكون لها منفذ إلى القلب أو إلى إثارة الهمة فى النفوس وتحريكها إلى الأخلاق التى هى عماد الرجل فى حياته، وركن الأمة فى حياتها"(٨٧) .

وأخيراً – وليس أخراً – فطالما حمل الإمام محمد عبده على التقليد وإهمال السنن الكونية، ونلمح تأثير ذلك على محمد طلعت حرب باشا، فيقول فى خطبة له فى باريس فى حفل الجمعية المصرية لتكريمه- يقول: "نريد إذن

(٨٥) المرجع السابق، صـ١٤٥.

(٨٦) "مجموعة خطب محمد طلعت حرب باشا"، صـ٨٣، صـ٨٤.

(٨٧) "المرجع السابق، صـ٨٦.

عقلية مصرية متشابهة فى سموها مع أسمى الأمم ثقافة، ونريدها عقلية مصرية مستقلة عقلية وليدة ماضينا الذى لا مفر من تأثيره فينا، ووليدة حاضر نسعى إلى أن نربطه بماضينا، كما نسعى أن نقوده ونسيره إلى مستقبل حسن، والمستقبل وإن يكن بيد الله إلا أنه إلى درجة ما- بيد القوم ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"(٨٨).

ولقد صدق تلميذ الإمام القول بالعمل، فنجد أن بنك مصر قد قام بعبء إنشاء الصناعات المصرية الأساسية بكفاءاتها ورجالها، ونذكر - على سبيل المثال لا الحصر من هذه الصناعات: شركة مصر للغزل والنسيج- مطبعة مصر- بنك مصر فرنسا- شركة مصر للملاحة البحرية- شركة مصر للكتان- شركة مصر لحلج الأقطان- شركة مصر لمصايد الأسماك – شركة مصر لنسج الحرير- شركة مصر للطيران. وهكذا فان تلميذ الإمام يعتبر رائدا من رواد الاقتصاد الإسلامى من زاوية العمل على تحقيق الاستقلال الاقتصادى وإنشاء القاعدة الصناعية الذاتية للتقدم، خاصة فى الصناعات الضرورية، ومن خلال تشغيل أموال المصريين والاعتماد على السواعد المصرية. وتشجيع الادخار ومحاربة الاكتناز. وربما يبرر تعامل بنك مصر بالفائدة حينئذ وجود فتوى للإمام تقصر الربا المحرم على ربا الأضعاف المضاعفة كما سبق لنا بيانه.

(٨٨) المرجع السابق، صـ١٦٨، صـ١٦٩.

٧/ نتائج البحث

أولا : إن رسالة مدرسة المنار هى استنهاض الأمة الإسلامية عن طريق العودة إلى الأصول بإعمال العقيدة والشريعة والأخلاق الإسلامية، واللغة العربية، فى إطار أصيل صاف من الشوائب منزه عن الانحراف. وعملت هذه المدرسة على تحرير الدين من دواعي الجمود والخلط، وتحرير العقول من قيود لم يرد بها الدين، كما عملت على إصلاح اللغة العربية. وعملت هذه المدرسة على نشر فكرها الإصلاحي الشامل، ومارست إعمال هذا الفكر فى الواقع، وخرجت للدنيا قادة قادوا مسيرة الحياة فى القرن العشرين –ولا يزالون– فى ضوء منهجها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع.

والاقتصاد فى فكر هذه المدرسة ركيزة أساسية للتمدن، وهو عندها –مثل كافة أركان الحياة– ينبغى أن يرتكز على الدين، والاقتصاد فى إطار الدين الإسلامى ليس سوى الاقتصاد الإسلامى .

ثانيا : و يمكن لنا أن نذكر فى ضوء بحثنا – جانبا من أهم إسهامات مدرسة المنار فى الاقتصاد الإسلامى فيما يلى:

١– قدمت مدرسة المنار مشروعا نهضوياً شاملاً للاقتصاد الإسلامى فيه شأن كبير، ودحضت فرية مغرضة مفادها أن سبب التخلف هو الدين الإسلامى، وبينت أن العودة إلى هذا الدين فى أصوله الحقيقية هى الطريق الوحيد للتمدن والنهوض.

وهذا فى رأينا الإسهام الأهم لمدرسة المنار فى الاقتصاد الإسلامى – وكافة نواحي الحياة– لأن ذلك قد جاء فى وقت عانت فيه مصر –بل والأمة الإسلامية– من سلسلة متعاظمة من التدخلات الأجنبية التى انتهت فى مصر باحتلال إنجلترا لها عام ١٨٨٢م، و محاولتها فرض القيم الغربية عليها وطمس هويتها الإسلامية، ودمج مصر فى المشروع الغربى باعتبارها أمة تابعة.

٢- دعت مدرسة المنار إلى تحرير الوطن من الاحتلال والدكتاتورية. والاستقلال والحرية لاشك نقطة بدء ضرورية لتطبيق المنهج الإسلامى المختار لعملية التمدن.

٣- دعت إلى إعمال العقيدة والشريعة والقيم الإسلامية لتقود عملية التمدن، وأعطت أهمية بالغة لقيم الاستقلال والحرية والعدل والعلم والعمل والاستطاعة والاعتدال، وهى قيم ضالعة فى الإطار العام للاقتصاد الإسلامى.

٤- دعت إلى إعمال أحكام الشريعة الإسلامية فى المعاملات، وأبرزت أهمية دور الزكاة والإنفاق فى سبيل الله فى عملية التمدن: بنائها واستقرارها، كما أبرزت أهمية التكافل الاجتماعى للأغنياء أنفسهم. وأبرزت أهمية اجتناب المحرمات سيما الربا والإسراف والتبذير والاحتكار... والتى كانت سببا فى تردى أحوال البلاد.

٥- بينت أهمية الأخذ بالأسباب والعمل فى إطار سنن الله فى الكون.

٦- أبرزت دور الأغنياء فى عملية التمدن وأهمية دور القادة فى هذه العملية.

٧- نادت بتخليص الدين من شوائب ليست منه – ضارة بعملية التمدن. ولعل من أهم هذه الشوائب: الجمود الفكرى، واعتناق الجبرية والسلبية، وإهمال

السنن الكونية، والولوغ فى البدع والمنكرات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع بل تعطل إمكانات الأمة فيما يضر ولا يفيد.

٨- أبرزت أهمية دور الإنسان فى عملية التمدن على أساس من قيم الدين الإسلامى.

٩- ركزت على أهمية التعليم والتدريب على أساس من قيم الدين الإسلامي، وجعلت هدف التعليم ليس فقط تخريج الأيدى القادرة على العمل بل أيضا وبدرجة أهم تخريج إنسان يهتم بصالح الأمة مثلما -بل ربما أكثر - مما يهتم بصالح نفسه، كما دعت إلى إتاحة التعليم والتدريب للفقراء.

١٠- نادت بضرورة إقامة الصناعات الأساسية التى تحتاج إليها الأمة، وضرورة تطوير تقنيات ذاتية ليس فقط كضرورة اقتصادية بل أيضا كضرورة وجود للدفاع عن الوطن واستقلاله.

١١- نادى رائد هذه المدرسة بإصلاح الأزهر والأوقاف وهما مؤسستان وثيقتنا الصلة بالاقتصاد الإسلامي.

١٢- نادت هذه المدرسة بالاستفادة من تجارب الآخرين فى إطار الدين الإسلامى والمصلحة المعتبرة.

هذا على الصعيد النظرى، وأما على الصعيد التطبيقى فلعل من أهم إنجازات مدرسة المنار فى هذا الصدد ما يلى:

١- فى رأينا أن أهم منجزات هذه المدرسة على صعيد الواقع تتمثل فى تربية الإمام محمد عبده لأجيال من المؤمنين بمنهجه فى

الإصلاح ، قادوا هم وتلاميذهم مصر فى القرن العشرين ولا يزالون فى قرننا هذا يقودون.

٢- نهوض تلاميذ الإمام محمد عبده بمقاومة المحتل وتحقيق الاستقلال لمصر والجهاد فى سبيل إرساء قيم العدل والشورى، وإعطاء المرأة حقوقها الإسلامية.

٣- أسس الإمام ومعه بعض الرواد الجمعية الخيرية الإسلامية التى كانت بحق منارا للعمل الإسلامى العام وتخريج قادة عظماء لهذا العمل فى كافة المجالات ومنها المجال الاقتصادى.

وكانت هذه الجمعية منارا لبث قيم الإسلام وعقيدته وشريعته تبدد ظلام التبشير والتغريب ومحاولة طمس هوية الأمة، كما كانت مجالا لإتاحة التعليم والتدريب للفقراء والمساكين، وكانت بالجملة نبعا للعمل الخيرى فى جميع المجالات وتطبيقا لجانب مباشر من جوانب الاقتصاد الإسلامى.

٤- مقترحات الإمام لإصلاح القضاء الشرعى، والتى طبق بعضها فى حياته وبعد وفاته، ومقترحاته لتقنين المعاملات فى الشريعة الإسلامية، والتى هى من مقتضيات تطبيق الاقتصاد الإسلامى.

وقد أقر المشرع المصرى الشريعة الإسلامية باعتبارها مصدرا رئيسيا للتشريع فى الدستور الصادر عام ١٩٧١م الذى جاء فى مادته الثانية (الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية والشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع). ولا نظن إلا أن ذلك حلقة متقدمة من

سلسلة حلقات تأثير مدرسة المنار التى أقامت منهجها الإصلاحى على الدين – العقيدة والشريعة والأخلاق–واللغة العربية.

٥- الإصلاحات التى أدخلها الأستاذ الإمام على الأزهر –قلعة الإسلام –والتى تؤثر بطريقة غير مباشرة على الاقتصاد الإسلامى من تخريج رجال ذوى عقول متفتحة ودين قويم يرشدون الناس إلى الهدى، ولا غنى للاقتصاد الإسلامى عن وجود مثل هؤلاء.

٦- قاد أحد تلاميذ الإمام –محمد طلعت حرب باشا– نهوض مصر، وتحقيق استقلالها الاقتصادى.

٧- فى رأينا أن دعاة الاقتصاد الإسلامى المعاصرين إنما هم أثر مضيء من أثار مدرسة المنار، ونذكر منهم الدكتور عيسى عبده، والدكتور أحمد عبد العزيز النجار وسمو الأمير محمد الفيصل أل سعود ورعيل كبير من رجال الاقتصاد الإسلامى المعاصرين لا نذكرهم لكثرتهم وخشية نسيان بعضهم، ولا نكاد نقرأ لكاتب عن الاقتصاد الإسلامى فى عصرنا لا يذكر الإمام محمد عبده صراحة أو ضمنا بتبنى منطلقاته الفكرية ومنهجه الإصلاحى.

٨- ونظن أن مؤسسات الاقتصاد الإسلامى القائمة الآن لابد وأن تكون بطريقة أو بأخرى –شعاعا لهذه المدرسة.

المراجع

أولا: كتب :

١. الجندى، المستشار عبد الحليم الجندى ١٩٨٧م، "الإمام محمد عبده "، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة مصر.
٢. حرب، محمد طلعت باشا حرب، "مجموعة خطب محمد طلعت حرب باشا"، الطبعة الثانية، مطبعة مصر والقاهرة، مصر.
٣. الذوادى، الأستاذ رشيد الذوادى، ٢٠٠٠م،"رواد الإصلاح"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
٤. الرافعى، المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى، ١٩٦١م،"جمال الدين الأفغانى – باعث نهضة الشرق" ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
٥. الرافعى، المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى، "عصر إسماعيل"، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
٦. رضا، الأستاذ محمد رشيد، ١٣٤٤ هـ "تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده" ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية، مطبعة المنار بمصر.
٧. رضا– الأستاذ محمد رشيد "تفسير القرآن الحكيم" الشهير بتفسير المنار، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
٨. سعيد، الدكتور عبد المنعم سعيد، ٢٠٠٢م، "صراع الحضارات أو العولمة "، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

٩. الطناحى، الأستاذ طاهر الصناعى، "مذكرات الأمام محمد عبده "، دار الهلال، القاهرة، مصر.
١٠. عبده، الإمام محمد عبده ،١٩٦٥م "رسالة التوحيد" طبعها وصححها وعلق عليها السيد محمد رشيد رضا، الطبعة الثانية، مكتبة القاهرة، مصر.
١١. عمارة، الدكتور محمد عمارة، ١٩٩٣ م "الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده "، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، مصر.
١٢. مؤنس، الدكتور حسين مؤنس، ١٩٨٦م "الربا وخراب الدنيا" الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، مصر.

ثانيا: دوريات :

١. "المنار" جريدة علمية أدبية سياسية " تأسست سنة ١٣١٥هـ منشئها السيد محمد رشيد الرضى.
٢. الوقائع المصرية.